

جريمة مزدوجة الحقيقة

بقلم / أمل محمد



الكتاب: جريمة مزدوجة حقيقية

النوع: رواية

المؤلفة: أمل محمد

التصحيح اللغوي: دعاء عطية

تصميم الغلاف: إبتهاال محمد

التنسيق الداخلي: أحمد جمال شاهين

الطبعة الأولى: 2026

رقم الإيداع: 2026 / 11395

الترقيم الدولي: 978-633-8490-16-4

الناشر: دار انطلاق للنشر والتوزيع

مدير الدار: أحمد مكي

تليفون الدار: 01142340157

بريد: للتواصل: startpublishing372@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأي اقتباس، أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يُعرض صاحبه للمساءلة القانونية؛ أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

«إن كنت تبحثُ هنا عن ذاك البطل الذي لا يُخطئ،
فأنصحك بإغلاق هذا الكتاب فورًا وتوفير وقتك».

أنا تيمور.. الشخص الذي لو صادفته في الطريق لظننتَ
أنتني على ما يُرام، لكن الحقيقة أنّ كلمة «على ما يُرام»
هي أكبر كذبة أعيشها.

لم أكن يومًا ذاك الشخص المثالي الذي يفعل الصواب
دومًا، بل أنا فحسب مَنْ أتقن بذكاءٍ فنَّ مواراة خطاياها،
حياتي ليست لوحةً رُسمت بمسطرةٍ وقلم، بل هي محضُ
خربشةٍ كبرى، ولستُ هنا اليوم لأعتذر، أنا هنا لأحكي
ما حدث وكفى.

«يقولون إنّ النار لا تترك أثراً للجن، لكنها دائماً تترك رائحة البنزين، أو رائحة الخوف».

وقفتُ أمام جثّتها المُنفخمة، والجميع من حولي يهمسون بأسماء كياناتٍ لا نراها، ينسبون القتل إلى «عالمٍ آخر»، هرباً من مواجهة بشاعة عالَمنا، يظنّون أنّ النار التي التهمتْها كانت ناراً مُقدّسة، أو لعنةً مُسلّطة، لكن عيني لم تكن ترّ سوى هندسة دقيقة للجريمة، وأصابع خفيّة، تعرف جيّداً كيف تُشعل الفئيل ثم تختبئ خلف ستار الخُرافة.

حتى تلك التي ماتت بعدها، والتي قالوا «أُتْها لُغت» لأنها كانت موضع شك، لم تكن بالنسبة لي سوى حلقة مفقودة في سلسلة من الغلّ البشري الصافي.

أنا تيمور، لا أوْمَن بالأشباح التي تَقْتَل، بل أوْمَن بالوحوش التي تمشي على قدمين، وتتحدّث بلساننا، وتقتل بدمٍ أبرد من الثلج، ثم تدّعي أنّ الجنّ هو الفاعل.

في هذه الأوراق، سأثبت أنّ الحقيقة دائماً لها وجه إنساني، مهما حاولت النار تشويهه.

إهداء

إلى مَنْ هُما النورُ في عيني، والسندُ الذي لا يميل...
إلى أبي، الذي علّمني كيف أقفُ ثابتةً أمامِ عواصفِ الحياة،
وكيف أقرأ ما خلفَ السطور.
وإلى أمي، التي لولا دعاؤها لَمَّا خطَّ قلمي حرفاً، ولولا حنانها لَمَّا
عرفتُ معنى النجاة.
إليكما..

أهدي ثمرة جهدي، بامتنانٍ لا تسعه الكلمات.

جريمة مزدوجة الحقيقة

بقلم / أمل محمد

في قلب القاهرة المعزية، حيث يمتزج الهواء برائحة البخور العتيقة، المنبعثة من حوارى (حي السيدة زينب)، وبينما تُخبئ الأزقة أسراراً بعمق البحار، كان منزلنا القابع في الطابق التاسع هو البقعة الوحيدة التي لا تعرف للسكنة سبيلاً.

لم يكن بيتاً عادياً، بل كان ساحة معركة يومية، فكيف لهدوء الفجر أن يصمد في بيت تسكنه (جميلة)؟ أستيقظ كل صباح على صوتها، الذي يُشبه في صريره فرامل حافلة مُتهالكة على طريقٍ منحدر، ومع ذلك، فهي تتوهّم في نفسها رقّة أنعام وعذوبة أوتارها.

كان صوتها البشع ينسلّ من المطبخ، مُخرقاً جدرانَ غرفتي وهي تشدو:

- مش عدالة.. فجأة ينساني بندالة...

كانت تُعني وهي تعبت بالأواني، لتُعدّ إفطاراً لم يجرو أحدٌ غيرها على تذوقه يوماً، وكأنها تُمارس طقوساً سحرية لا طعاماً بشرياً. خرجت من غرفتي، وعيناى تشتعلان بقلة النوم، وقاطعتُ وصلة النواح تلك قائلاً:

- هو أنتِ مش بتحرمي؟ أكلك زي الزفت، وصوتك يقطع الخميرة من البيض، بتعملي إيه على الصبح؟

توقّفت عن (الجعير)، ونظرت إليّ ببرودٍ لا تُحسد عليه، وقالت بلهجة واثقة:

- تيمور يا حبيبي، حاول تهديّ غلّك منى شوية، مش كدا! الصراحة قرفتني، وطاقتك السلبيه دي بتبوّظلي الطبخة.

عُدْتُ بظهري للوراء وأنا أتنهّد بيبأس، مُفكراً في (قضية السيدة المحروقة) التي تنتظرني في المكتب، وفي هذه المُصيبة التي تنتظرني كل صباح في المطبخ.

فجأة، انقطعَ حبلُ أفكاري المنسوج من دُخانِ السجائر وضجيج جميلة، ليحلَّ محلُّه طَرَقٌ عَنيفٌ على الباب، كأنه نذيرُ شؤمٍ مُستعجل، لقد جاء شريف ومعه نغم، رفيقا الدرب في دهاليز البحثِ الجنائي، لننطلق إلى عملنا كما اتفقنا بالأمس. تحاملتُ على جسدي المُنهك، وذهبتُ لأفتحَ الباب وأنا أفركُ عينيّ بتعبٍ يحكي قصةَ سهرٍ لم ينتهِ.

- تيمور.. يا تيمور، حبيبي يا تيمور!

كان هذا صوت شريف المزعج، الذي يمتلكُ قدرةً فائقةً على اختراقِ أعتى طبقاتِ الصداق، نظرتُ إليه بضيقٍ، وقلْتُ بصوتٍ يملؤه الإرهاق:

- هو فيه إيه؟ إيه التلوث السمعي اللي على الصبح ده يا شريف؟ ارحم وداناً شوية.

هنا تدخّلت نغم بوقارها المعهود، وجدّيتها التي لا تُفارقها، وقالت بصوتٍ قاطع:

- تيمور، مفيش وقت للهازار، سيادة اللواء مستئينا، ولازم نتحرك لكان الجريمة فوراً النهاردة.

اعتصمتُ بالصمتِ لثوانٍ، بينما كانت رائحةُ الحريقِ القديمة في مُخيلتي تتصارغُ مع صوتِ نغم الحازم، فالיום ساقفُ وجهًا لوجه

أمام تلك الجَنَّةِ الْمُتَفَحِّمَةِ، وسأبدأ رحلتي في إثباتِ أَنَّ الجَنَّ بريءٌ
من دم بني البشر.

وبعدَ مُضَيِّ ساعاتٍ من الزَّحامِ القاهري الخانق، كنا نقفُ أخيراً
أمام بابِ القسمِ القابعِ في قلبِ حيِّ عابدين العتيق، حيثُ الجدرانُ
الضخمةُ تشهدُ على آلافِ الحكاياتِ والجرائمِ، وقفنا ننتظرُ
السيارةَ الْمُخَصَّصَةَ لنقلنا إلى مسرحِ الجريمة، بينما كانت الأفكارُ
تتلاطمُ في رأسي كأَمواجٍ غاضبة.

التفتُ إلى نغم، محاولاً استخلاص أيِّ خيطٍ يربطُ الشَّتات، وفُلتُ
لها بنبرةٍ جادة:

- نغم، اكتشفتِ إليه جديد في القضية دي؟ من إمبارح وأنا بفكرٍ
وموصلتُش لحاجة تبرّد ناري.

وقبل أن تفتحِ نغم فمها بالرد، انطلقتِ نكتة شريف الساذجة التي
كانت آخر ما أحتاجه في هذا الصباح الثقيل، حيث قال ببرودٍ
مُسْتَفْز:

- خلاص اركب تاكسي!

كظمتُ غيظي بصعوبة، وكان السَّبَابُ يقفُ على طرفِ لساني،
لولا وصولِ السيارة التي ستنقلنا إلى قلبِ الحدث، سعدنا جميعاً،
والسَّكوتُ خيمَ على المكان، بينما كانت رائحةُ الدخانِ الغامضة
تبدأ في مُدَاعِبَةِ أنفي قبل حتى أن نَصِل.

وصلنا أخيراً إلى مسرح الجريمة، حارةً ضيقةً منسيةً في غياهب الزمن، جدرانها مُتهالكة، وكأنها تتكئ على بعضها البعض لنفاذي السقوط، والبيوت متلاصقة لدرجة أن الأسرار فيها لا تجد مكاناً لتختبئ.

توقفتُ أمام البناية المقصودة، وارتجفتُ قدماي قليلاً حين وقعت عيناى على مشهدٍ مهيب: كان المنزلُ عبارة عن كتلةٍ صخرية سوداء، تكسوها شقوقٌ تُشبهُ التجاعيدَ في وجه عجوزٍ شمطاء، والمدخلُ مُظلمٌ تفوحُ منه رائحةٌ رطوبة عتيقة مُمتزجةً ببقايا الحريق.

نظرت نغم إلى البيت بصدمةٍ لم تستطع مواراتها، وقالت بصوتٍ خفيض:

- تيمور، أنا وصيّت شريف يجيب لنا كل المعلومات المُتاحة عن الست دي.

وفورَ نطقها، اقترب شريف وهو يحملُ دفترًا جلدًا قديمًا، تأكلت أطرافه واكتست باللون الأصفر، وكان يقلبُ صفحاته بتركيزٍ مُريب وهو يتحدث:

- الست دي اسمها (مديحة بنت إبليس)، لقّبوها باللقب ده لأنها كانت غارقة في السحر لدرجة الجنون، ويُقال إن عائلتها كلهم ماتوا كقرايين للشيطان بسببها، ومفضلش منها غير بنت أخوها تمارا، اللي أصلاً قتلت أبوها وأُمها، الناس خافت منها واعتزلوها، وهي فضلت في طريقها لحد ما جاتلها ست غنية تطلب عمل لجوزها اللي بيخونها، مديحة وقتها كبرت وعجّزت،

وشكلها خافت من الموت، وقالت لنفسها: 'ما تتوبي بقى يا بت يا ديحة...'

قاطعتُهُ بتهكّم وأنا أنظرُ إلى تفاصيلِ المدخلِ الكئيب:

- كلمة (بت) دي اجتهاد شخصي منك ومن خيالك الواسع طبعًا!

ردّ شريف بجديّة مُصطنعة وهو يُغلّق الدفتر:

- بطلّ تفاهة يا تيمور وسيني أكمل، المهم إنها قرّرت تتوب وهي في نص العمل، وفجأة النار شبت فيها واطحرت، وبعدها على طول ماتت الست الغنية اللي كانت عندها، اللي اسمها (تيجان).

وقفتُ مكاني لثوانٍ، أتأمّل هذا المزيجَ العجيبَ من السحرِ والتوبةِ والموتِ المفاجئ، هل كانت نارًا حقيقية؟ أم أنّ بنت إبليس استُدعيَتْ لحسابٍ قديم؟

دخلت إلى الشقة وأنا أتأمّل جدرانها، التي لم يعد يربطها ببعضها سوى الرماد، وكأنّ النار لم تحرق المكانَ فحسب، بل محت تاريخه أيضًا.

قطع سكّون المكان الموحش دخول شريف وهو يجرّ حارس العقار من قفاه بقوة، كأنه يُمسك بصيّد ثمين تعثر في فجّه، وتتبعهما نغم التي كانت عيناها تمسحان الزوايا بدقة ماسح ضوئي لا يُخطئ.

نظرتُ إلى شريف باستكبارٍ وقلت:

- في إيه يا شريف؟ ماسك الراجل كدا ليه؟ استهدى بالله.

ردّ شريف وهو يصفغ الرجل لطمه خفيفةً على قفاه، ليستحثه على الكلام، وقال بلهجة حادة:

- دخلتُ فتشيت بيت البيه، لقيتُ عنده بنزين بكميات تخوّف، بتعمل إيه بكل البنزين ده في بيتك يا روح أمك؟

هنا تدخلت نغم بصوتها الهادئ المُستفز، وهي تُضيق عينيها نحو الحارس:

- وبرضو أنت كنت بتكره الست مديحة وبتترتش منها، لأنها بأعمالها دي كانت بتطّفش منك السكان والزبائن، مش كذا؟

تقدّمت بخطواتٍ واثقةٍ حتى صرّت في مواجهته تمامًا، وسألته بنبرةٍ رخيمةٍ تحملُ وعيدًا خفيًا:

- البنزين بيعمل إيه في بيتك؟ وعلاقتك بالست مديحة كانت واصله لحد فين بالطبط؟

ارتجف الرجل رُعبًا، واصطكّت أسنانه وهو يُحاول لملمةً شتاتٍ كذبيته، فقال بصوتٍ مُتهدّج:

- والله يا بيه أنا ما عملت حاجة، البنزين ده كله في بيتي عشان أنا بجمّعه وأبيعه في السوق السوداء للتوك توك والموتوسيكلات اللي في الحارة هنا، والله ده أكل عيشي، لا حرقت ولا جيت ناحية حد.

بدا كلام الحارس مُقنعًا لدرجةٍ تجعلُ الشكَّ يتسلّل خلف اليقين، فالسوق السوداء في هذه الحارة لها منطقتها الخاص، سألتُه وأنا أُضيق عيني محاولًا قراءة ملامحه:

- طب مين آخر شخص كان موجود هنا قبل ما البيت يولع بفترة؟

أجابني وهو يلهثُ كَمَنْ قطعَ سباقَ ماراثون من الخوف:

- أيوة يا بيه، كان هنا رجائي السِّبَّاك، جه يصلح لها حوض المطبخ، وبعد ما مشي بخمس ست ساعات، لقيت البيت ولّع وبقي رماد!

- وتعرف مكانه فين بالضبط؟

- طبعا يا بيه، بس خَلِّي الباشا ده يسيب قفايا.

أَشَرْتُ إلى شريف بحزم:

- سيبه يا شريف، خالينا نشوف آخرة السِّبَّاك ده إيه.

انطلقنا خلفه إلى بناية تبعد عن منزلٍ مديحة نحو ربع ساعة، كان بيتًا غريبًا يقبعُ وحيدًا في أرضٍ فضاء، جدرائه تبدو كأنها ناجيةٌ من حريقٍ قديم، ولا جيرانَ يُحيطون به، وكأنه منبوءٌ عن العالم، طرقتُ الباب بقوة، وبعد دقائق ثقيلة، انفتحَ ليخرجَ منها رجائي.

لم تكن هيئته تُوحى أبدًا بوقار المجرمين أو بشاعة القَتلة، بل كان رجلًا مربع القامة، يمتلكُ جسدًا مُمتلئًا يُشبه الدبدوب في وداعته، ووجهه مستديرٌ، تكسوه حُمْرة طبيعيةٌ في الوجنتين تُشبه حبَّات الكرز، وعيناه تلمعان بطيبةٍ فطريّةٍ لا تليقُ بمحترفي الإجرام.

حدّثت نفسي بصدمة:

- يا حلاوة، ده ناقص يلبس بدلة العيد ويمسك بلّونة، مش يروح يحرق ست غلبانة!

تحدّثت بنبرةٍ رسميةٍ لأقطعَ هذا الهدوء:

- أنت رجائي السّباك؟

نظر إلينا ببلاهةٍ مُحَبِّبةٍ، وهزَّ رأسه ببطء:

- أيوة يا باشا، خير؟ الحوض باظ ثاني ولا إيه؟

تدخّل شريف وهو يدفعه للداخل بخفّة:

- حوض إيه يا روح البابا، إحنا جايين في ليلة سودة، مديحة بنت إبليس اتحرقت بعد ما أنت مشيت من عندها بكام ساعة، تحب تقول لنا كنت بتصلّح إيه بالطبط؟ المواسير ولا حسابات قديمة؟

ارتبك رجائي، وتلعثم وهو يفركُ يديه المُلطّختين بالشّم:

- يا فندم والله أنا غلبان، دي الست مديحة كانت زي أمي، وأنا روحت سلّكت لها المحشر وخذت حسابي ومشيت، نار إيه وكلام إيه اللي بتقولوا عليه!

دخلت نغم في خط المواجهة بأسلوبها الذي يمزجُ بين النعومة والتهديد، ومدّت يدها لتُداعب وجنته المُحمّرة بتهكّمٍ قائلة:

- طب بُص يا سكر، أنت هتقول لنا الحقيقة بمزاجك، ولا نعرفها بطريقتنا الخاصة؟ وشك ده مش وش حد يستحمل التقدير في القسم.

شحبَ لونُ رجائي فجأةً، وبدأت علاماتُ إرهابٍ غريبةة
تغزو ملامحه الوديعة، كأنَّ سحابةً سوداء مرّت فوق
وجهه، وترنّحَ في وقفته وكأنه على وشك الإغماء، وهو
يهمسُ بصوتٍ مخنوق:

- أنا مليش دعوة يا باشا، والله العظيم أنا روحت أصلّح
الحوض وخلص، ارحموني.

لم أهتم كثيرًا بتوسّلاته، فثمّة شيء آخر استوقفني وجعل
الدماء تتجمّد في عروقي، كانت هناك لوحةٌ خشبيّةٌ عتيقة
معلّقة على الحائطٍ بخطافٍ صدئ، لم تكن مجرد رسمة،
بل كانت تجسيدًا لـ "عينٍ واحدةٍ مفتوحةٍ على اتّساعها،
يخرجُ من إنسانها خيوطٌ سوداء تُشبه أقدام العنكبوت،
وتُحيطُ بها رموزٌ وحروفٌ سريانيّةٌ لم أفهم منها شيئًا.

تذكّرتُها فورًا، كانت هي نفس التميمة أو اللوحة التي
رأيتُ بقاياها المحترقة في بيت مديحة بنت إبليس!

وجّهتُ نظراتي الحادّة نحو رجائي، وسألته بنبرة أمرّة:

- ممكن أعرف اللوحة دي بتعمل عندك إيه؟ دي نسخة
طبّق الأصل من اللي موجودة في بيت الست مديحة الله
يرحمها.

هنا لم يستطع شريف كتمان فضوله السّقيم، فتدخّل بكلماته الساذجة كالعادة:

- يرحمها إيه بس يا تيمور؟ دي مديحة بنت إبليس يا عم، دي مبيجوزش عليها الرحمة، دي تلاقي الشيطان نفسه بيستعيذ منها دلوقتي...

لم يُكمل جملته حتى هوت يد نغم على قفاه بصفعةٍ مُدوية جعلته يترنّح، وقالت له بضيق:

- لو تبطلّ ثقل دمّك ده هنكون كلنا كويسين، إحنا في إيه ولا في إيه يا بني آدم أنت!

التفتُ إلى رجائي الذي كان يتصبّبُ عرقًا باردًا، وسألته:

- انطق يا رجائي، اللوحة دي جاتلك منين؟ وهل هي اللي حرقت بيت مديحة؟

شحبَ وجهُ رجائي أكثر، وكأنّ ذكرى اللوحة استحضرَتْ أشباحًا من الماضي، وقال بصوتٍ مُرتعش:

- أنا معرفش حاجة يا باشا، اللوحة دي هنا من أيام أمي الله يرحمها، يعني بقالها يجي ستاشر سنة، أصل أمي كانت أقرب واحدة للست مديحة، واللوحة دي سرّ قديم بينهم، يعني لو عايزين تسألوا عنها، تروحوا تسألوا أمي في ثُربتها بقا!

بدأت نغم تدورُ حوله كصقرٍ يُحاصر فريسته، وعيناها لا تُفارقان تعابير وجهه المُنهك:

- سييك من الأموات دلوقتي، الست مديحة دي ليها قرايب؟ حد بيكرها لدرجة إنه يحرقها؟ حد عايز ينتقم من أعمالها؟

مسح رجائي حَبَاتِ العرق عن جبينه بيده المُرتجفة وأجاب:

- بُصي يا هانم، أنا معرفش غير تمارا بنت أخوها، ودي أصلاً عايشة في إيطاليا من سنين، بس على حد علمي، سمعت إنها نزلت مصر قبل الحادثة بكام ساعة، وفي كمان الشيخ عبد الله، وده راجل مُتدين بيكره الست مديحة كُره التحريم، بسبب السحر اللي كانت بتعمله، دول بس اللي ممكن يكون بينهم وبينها عداوة.

هنا نطق شريف أخيراً بجملة مفيدة، بعيداً عن تهريجه المُعتاد:

- طب والبرنسيسة تمارا دي نلاقيها فين؟ وليها مكان هنا ولا فص ملح وذاب؟

ردَّ رجائي بسُرعة:

- لا والله ما أعرف مكانها فين بالضبط، بس اللي أكيد يعرف هو الحاج نصيف، ده بيقى خالها، وهو اللي شايل أسرار العيلة كلها.

سألته بلهفةٍ لم أستطع كتمانها:

- وتعرف مكان نصيف ده فين؟

- أيوة يا بيه، ده ساكن في عزبة أبو حشيش، في بيت قديم ملوش
غير باب واحد ومقفول بجنازير، ورا ورشة الرخام اللي في آخر
الحارة، هتمشوا في زقاق ضيق ريحته كلها نشارة خشب،
هتلاقوا بيت عالي وقدامه شجرة صبار مينة، هناك هتلاقوا الحاج
نصيف.

تيمور (حدّثت نفسي بتعب):

- عزبة أبو حشيش وشجرة صبار مينة؟ دي كملت، إحنا مش
رايحين نقبض على حد، إحنا رايحين نفتح مقبرة!

قطعت نغم حبلَ دهولي باللوحة وهي تسأل رجائي بلهجةٍ عملية:
- طب معاك لو كيشن أو أيّ علامة توصلنا للشيخ اللي قولت عليه
ده؟

- آه يا فندم، ده ساكن جنب بيت الست مديحة بالظبط، ميفصلش
بينهم غير جدار واحد.

التفتت إليّ نغم وقالت بحزم:

- طب يلاً يا تيمور، واقف مبخلق في اللوحة كدا ليه؟ الوقت
بيجري منّا.

تمتمت بصوتٍ خفيض:

- مفيش.. مفيش، يلا ببنا، شريف هات رجائي ده ورانا، هنطلع
على بيت الشيخ عبد الله فوراً.

وبعد مُضي وقتٍ من المناورة وسط أزقة الحارة، وقفنا أمام بيت الشيخ عبد الله، كان منزلاً يفوخ منه عبق المسك ولبان الذكر، مدخله نظيفٌ بشكلٍ لافتٍ للنظر وسط رُكام الحارة، وعلى بابه عُقِلَت آيةٌ قرآنيةٌ بخطٍ كوفيٍّ أنيق.

طرقْتُ البابَ بهدوءٍ، وما هي إلا ثواني حتى انفتح، ليظهر لنا رجلٌ في مقتبل العمر، ذو لحية مُهذبة طويلة، ووجهٍ يشعُّ بشاشةً وصفاءً، كأنَّ قلبه ينعكسُ على ملامحه.

أتى صوتٌ شريف الساخر من خلف ظهري وهو يهمس:

- بدمتكَ يا تيمور، ده منظر واحد يقتل؟ ده آخره يورّع شربات في مولد.

تجاهلتُ سخافته المُعتادة، ودخلتُ إلى الداخل وعيناوي تجوبان المكان كأنها رادار، كان البيتُ بسيطاً، مفروشاً بسجادٍ يدويٍّ قديم، وتملاً جدرانهُ رفوفٌ خشبيةٌ، اصطفت عليها كتبُ التراث والدين، لم أجد أثراً لبنزين، ولا رائحةً لحريق، ولا حتى خيطاً واحداً يربطه بتلك اللوحة الملعونة.

وقفتُ وسط الغرفة، وبعد أن انتهيتُ من فحصِ كل زاويةٍ بدقة، التفتُ إليه ووجهتُ له كلامي بنبرةٍ هادئةٍ، ولكنها تحملُ ثقل التحقيق:

- يا شيخ عبد الله، إحنا مقدّرين وقتك، بس الجريمة اللي حصلت في البيت اللي جنبك بشّعة، والكل عارف إن كان فيه خلاف عقائدي كبير بينك وبين الست مديحة، تحب تقول لنا كنت فين وقت ما النار شبت في بيت بنت إبليس؟

وقف الشيخ عبد الله ثابتًا، لم يهتز جفنه أمام اتّهاماتنا، بل رسمت ملامحه هدوءًا يُثير الرّيبة بقدر ما يبعث على الطمأنينة، وقال بصوتٍ رخيم:

- يا حضرة الضابط، أنا لو بيني وبينها مصانع الحدّاد عمري ما أقتل نفس، أنت عارف ربنا ذكر عقاب ده في كتابه الكريم وقال إيه؟ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا»، أنا أخاف من غضب اللي خلقني أكثر ما أخاف من حبل المشنقة...

بدأت خيوط الليل الأولى تنسج سوادها في الأفق، مُعلنةً اقتراب موعد انتهاء التحقيق الميداني، وهو الوقت الذي يزداد فيه ضيقي وتوتر نغم. قطعْتُ نغم استرساله الإيماني، وتحدّثت بلهجةٍ حادة اخترقت سكون الغرفة:

- يعني عايز تقولي إن بيوتكم لازقة في بعض، وأنت بتكرها كره التحريم، لأنها ست مش تمام وغرقانة في السحر، ومع ذلك وقفت تنفّرج عليها وهي بتتحرق؟ معلش يا شيخنا، الكلام ده مياكلش معانا عيش.

وفجأة، استوقفنا شريف بكلماتٍ ألّقاها كالقنبلة، لفّت انتباهنا لزاويةٍ غفلنا عنها لساعات وسط دخان الحريق:

- يا جماعة، إحنا غرقنا في بنت إبليس ونسينا الست الغنيّة اللي ماتت برضو في نفس الليلة!

رددتُ عليه بضجرٍ وأنا أمسحُ وجهي المنهك:

- طب عايز إيه يعني يا شريف؟ ما الست دي ماتت وانتتهت، إحنا هنا في قلب الحارة مش في القصور.

اشتعل وجه شريف بجديّة نادرة وقال:

- بطلّ غباء يا تيمور، الست دي اللي اسمها تيجان، المفروض نسأل أهلها ماتت إزاي؟ وإيه علاقتها بمديحة غير موضوع السحر؟ لأن الحكاية دي مش داخله دماغي ببصلة، فيه سر كبير هناك.

تدخل الشيخ عبد الله بهدوءٍ مستفز، وكأّنه يُلقي حكمةً من عالم آخر:

- ده أكيد من الجن، لما مديحة قرّرت تتوب، الجن حَب ينتقم منها ومن اللي كانت بتعملّهم العمل، ده انتقام غيّبي يا حضرة الضابط. هنا انفجرت نغم عصبية، وصاحت فيه وهي تُللم أوراقها بغنف: - ممكن نبطلّ جهل بقا؟ ونبطلّ نجيب ذنب الجن ونرمي عليه بلاوينا ومعتقداتنا الحقيمة دي؟ الموت ده وراه إيد بشرية، والجن بريء من خيبتنا، يلا بينا من هنا يا تيمور، الليلة دي مش هتعدّي على خير.

انتهت ساعات التحقيق الطويلة، لكنّ عقلي لم يتوقّف عن الدوران. عُدتُ إلى منزلي في حيّ السيدة زينب العتيق، وكان شريف يُرافقني كظليّ الثقيل، سعدنا درجات السلم المُتَهالكة، وبينما كان يلهث خلفي، انطلق لسانه بكلماتٍ لا تخلو من سخافته المعهودة:

- ساكنين في الدور التاسع ومفيش أسانسير؟ ده أنتم عيلة معفنة يا تيمور، كل ده عشان توقروا الإيجار وتدفعوا ٣ آلاف جنيه بس؟

أخرجت مفاتيحي وأنا أرفرفُ أنفاسي بجُهدٍ وتعب، وأجبتُهُ بتهكم:

- ما دام إحنا عيلة معقّنة، بتيجي تتعشّى عندنا ليه كل يوم؟

ردّ شريف وهو يمسح عرقه بقميصه:

- يا عم عشان أمي بتعمل الرّز معجّن وأنا جعان، واللّقمة عندكم ليها طعم ثاني.

فتحتُ الباب وأنا أتهيأُ لسماع "جعير" جميلة المعتاد، لكنّ السكون الذي خيم على الصّالة كان مُريباً، تسمرت قدماي مكاني، وبرقت عيناي بصدمة زلزلت كياني، كان أبي جالساً على الأريكة بكل برود، ينفث دخانَ شيشته في الهواء وكأنه لم يُغادرنا يوماً، وفي الزاوية كانت جميلة تقف مُنكسرة، تنهمرُ دموعها بصمت، وعلى خدّها أثرُ صفعة قاسية تركت بقعةً حمراء لم تبرد بعد.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أندفعُ نحوه كالإعصار، وقفتُ أمامه بعصبية جارفة، وبحركة واحدة حطمتُ الشيشة التي كان يمسكها، ليتناثر الفحمُ والماء تحت أقدامنا، صرختُ فيه بصوتٍ هزّ أرجاء المنزل:

- أنت إيه اللي جابك هنا؟ أنت عارف لولا إنك أبويا كان زمانى عملت فيك إيه دلوقتي!

وقفتُ أمامي بجسده الضخم، وكرشه الذي يمتدُّ أمامه مترين كأنه جبلٌ من اللحم، ونظر إليّ بنظرة باردة مُستفزة، ثم قال بضحكة صفراء:

- والله وشوفتك يا تيمور وبقيت راجل وبتعرف تزعق.

كِدْتُ أَنْقِضُ عَلَيْهِ لِأَفْرَغَ فِيهِ غَلَّ سَنِينِ الْغِيَابِ وَالْقَهْرِ، لَوْلَا أَنَّ
شَرِيفَ قَبْضَ عَلَى يَدِي بِسُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ، وَهُوَ يَهْمِسُ فِي أُذُنِي
بَصَوْتٍ لَاهِتٍ:

- مِينَفْعَشْ كَدَا يَا تَيْمُورَ، دَه مَهْمَا كَانَ أَبُوكِ!

نَقَضْتُ يَدِي مِنْهُ وَأَنَا أَصِيحُ بِجَنُونٍ:

- دَه الْعُقُوقُ فِيهِ حَلَالٌ، دَه رَاجِلْ مَعْدُوشْ دَمٍ وَلَا إِحْسَاسَ، عَايِزْ
إِيهِ؟ وَجَايْ لِيَهْ بَعْدَ الْعَمْرِ دَه كُلِّهِ؟

عَادَ لَجَلَسْتِهِ بِيَرُودٍ يُثِيرُ الْغَثِيَانِ، وَكَأَنَّ حُطَامَ الشَّيْثَةِ تَحْتَ قَدَمِيهِ
لَمْ يَكُنْ سِوَى رَمَادٍ لَا قِيَمَةَ لَهُ، ثُمَّ نَطَقَ بِكَلِمَاتٍ سَقَطَتْ كَالسَّمِّ فِي
أُذُنِي:

- أَنَا جَايْ عَشَانَ أَخْتِكَ جَمِيلَةَ، جَايِلِي عَلَيْهَا صَفْقَةُ الْعَمْرِ،
وَمَحْدَشْ هِيَقِفْ فِي طَرِيقِي.

تَسَمَّرَتْ جَمِيلَةَ فِي مَكَانِهَا، وَانْحَبَسَتْ أَنْفَاسُهَا وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ
بِرُعْبٍ، وَكَأَنَّهَا لَا تُصَدِّقُ أَنَّ هَذَا الْمَسْخَ هُوَ مَنْ مَنَحَهَا اسْمَهُ يَوْمًا.
أَمَّا شَرِيفٌ فَقَدْ فَقَدَ صَوَابَهُ، وَبَرَقَتْ عَيْنَاهُ بِصَدْمَةٍ، جَعَلَتْهُ يَصْرُخُ
قَبْلَ أَنْ يَنْطِقَ لِسَانِي بِحَرْفٍ:

- دَه عِنْدَ أَمَكِ، أَنْتِ فَاكِرْهَا مَلْهَاشْ حِدٍ وَلَا إِيهِ؟ دَه أَنَا أَدْفِنُكَ
مَكَانَكَ هُنَا.

نَظَرْتُ إِلَيْهِ بِهَدْوٍ مُخِيفٍ، هَدْوٍ يَسْبِقُ الْعَاصِفَةَ الَّتِي تَقْتُلُغُ
الْأَشْجَارَ، وَقُلْتُ بِصَوْتٍ مَخْفُضٍ وَلَكِنَّهُ حَادٌّ كَالشَّفْرَةِ:
- مُوَاظِقْ.

سقطت الكلمة كالصاعقة، رأيْتُ في عينيَّ جميلةً انكسارًا لم أره من قبل، خذلانًا مرًّا كأني طعنْتُها في قلبها بدمٍ بارد.
كادَ أبي أن يبتسمَ ظنًّا منه أنني استسلمت، لكنني لم أمهلُه ثانيةً واحدة حتى أكملتُ حديثي:

- موافق، بس لما تعدِّي على جَنَّتِي الأول، وتأخذ روحك في إيدك وأنت خارج من هنا.

اقتربتُ منه حتى تلاقت أنفاسي بأنفاسه الكريهة، وتابعْتُ بلهجةٍ لا تقبلُ القسمةَ على اثنين:

- البيت ده دخوله كان غلطة، وخروجك منه دلوقتي هو الندم اللي هتعيش فيه باقي عُمرِك، لو كان ليكَ عُمر أصلاً.

- أنت متعرفش مصلحة أختك، ناديلي أمك، هي راحت فين؟

كان أهون عليَّ أن يقتلني ولا يذكر أمي، تلك المرأة العظيمة التي كافحت ولم تُدْخِل علينا رجلاً يوماً ما، بل وهبت حياتها فُرباناً لنا، لقد ماتت منذ ثلاث سنوات، ومات معها الصدق الوحيد في هذا العالم.

قطع حبل أفكارِي صوت شريف الذي ارتحف وهو يُتمتم بذهول:

- خالتي ميادة الله يرحمها، أنت عايز إيه؟

تعالت ضحكة الرجل الساخرة والمُستفزة وهو يقول:

- هههه، هي ماتت؟ يلا، ربنا يججمها!

في تلك اللحظة، فَقَدْتُ السيطرة على ذَرَاتِ عقلي، جذبته من قميصه بقوة غاشمة حتى باب المنزل، ثم ركلته للخارج بكل ما

أُوتيت من قهر، وبصقتُ في وجهه وأنا أهدر بصوتٍ زلزل
أركان الممر:

- ورحمة الغالية، لو لمحت طيفك هنا ثاني لكون قاتلك، فاهم!
أغلقتُ الباب في وجهه بعنف، والتفتُ إلى جميلة التي كانت
ترتجف كعصفورٍ بلّله المطر، اندفعتُ نحوها واحتويتها بين
ذراعيّ، كأنني أحاول إخفاءها عن العالم:
- جميلتي، اهدي يا حبيبي، خلاص غار في داهية.

رفعت رأسها والدموع تحفر مجاريها على وجنتيها، وقالت
بصوتٍ مخنوق:

- تيمور أنا تعبت، هو ليه بيعمل معايا كده؟ ده المفروض أبويا،
يعني أنا عَرَضه وشَرَفه!
شددتُ من ضمّتي لها، وقبّلتُ رأسها قائلاً بنبرة هادئة لكنها
صلبة كالحجر:

- أنا اللي أبوك يا جميلة مش هو.

حاول شريف أن يُبدّد غيوم الكآبة التي خيّمت على المكان، فدنا
من جميلة وقال بنبرة مُشاكسة، يُحاول بها تلطيف الأجواء:

- خلاص يا جميلة، متبقّيش قفوشة كده، بكرة تبقي غنيّة وست
الهوانم، ومش هتريق عليكِ ثاني خالص، وبعدين يا ست الكل ما
ترأفي بحالي بقا، قومي حضّري العشاء، ده أنا عصافير بطني
بتصوّت.

انسحبت جميلة نحو المطبخ بصمتٍ مُطبق، كانت ملامحها قد ذبلت كزهرةٍ نالت منها الريح، واختفت ضحكتها التي كانت تملأ البيت صخبًا، لم يبقَ في الرّدهة سواي أنا وشريف، فجلسنا على الأريكة المُتهالكة، لُفّاجئني بسؤالٍ خرج من بين شفّتيه ببراعة:

- ما تقولي يا تيمور، هو أنت لسه غاوي الطماطم الخضراء؟ أصل أُمي عندها منها كتير وناوية تعملّك مفاجأة.

لم أتمالك نفسي، وانفجرت ضاحكًا رغم كل ما يُثقل صدري، وأجبتُه وأنا أحاول استعادة رصانتي:

- هاجي أكل من عندكم أكيد، بس لما نشوف الدّوكة اللي إحنا فيها دي الأول،، المهم يا شريف عايزك تجييلي قرار الست دي وعنوانها النهاردة، عشان نروحها بكرة الصبح ملو الفجر، وبعدها نعدّي على خال تمارا، يمكن نوصل لخيط يريّحنا.

اتّسعت ابتسامة شريف وهو يضرب على صدره بثقة قائلاً:

- عيوني دي قبل عيوني دي يا صاحبي، بس أخلّص على الأكل الأول وأورّيك شغل المعلمين.

جاء صوت جميلة من خلف جدران المطبخ، يحمل نبرةً حاولت جاهدةً أن تبدو طبيعية:

- يلا يا تيمور، يلا يا شريف، الأكل جهز.

جلسْتُ أتناول طعامي والشرود يُغالبنِي، حتى وقعت عيناَي على كفٍّ جميلة، كانت هناك كدمات زرقاء قبيحة تغزو جلدَها الرقيق كأنها وسمٌ من القهر، تجمّدت اللقمة في حلقي وسألْتُها بحدّة:

- إيه الكدمات دي يا جميلة؟

ارتبكت، وحاولت بسرعةٍ مُريية أن تجذب كُفَّ قميصها لتُداري
أثر الجريمة، وهي تُتمتم:

- لا، متسرحش بخيالك يا حبيبي، ده حرق بسيط بس وأنا بعمل
الأكل، مفيش حاجة.

لم يُلامس قولها ذرّة من قناعتِي، تركتُ الطعام ونهضتُ مُتجهاً
نحوها بخطواتٍ وثيدة تخفي خلفها بركائنا، أمسكتُ يدها برفقٍ
حازم ورفعتُ الكُفَّ، لتتكشف الحقيقة المُرة، لم تكن حروقاً، بل
كانت بصماتٍ زرقاء تُخبر قصة اعتداءٍ وحشيّ.

نظرتُ في عينيها وسألتُ بكلمة واحدة، كانت تخرج كفحيح
الأفعى:

- هو؟

انفجرت في البكاء وهي تتشبّث بقميصي كأنها تستحلفني:

- أيوة، بس وحياة غلاوتي عندك بلاش تودّي نفسك في داهية يا
تيمور، عشان خاطري سيبه.

لم تكن أذناي تستقبلان حرفاً ممّا تقول، فقد أعمى الغضب
بصيرتي، التفتُُ باليّة نحو شريف الذي كان يراقب الموقف
بصمتٍ حذرٍ، وقُلْتُ له بنبرة قاطعة لا تقبل الجدل:

- يلا يا شريف، قوم رَوِّح دلوقتي، أنا ورايا مشوار سريع كده
لازم يخلص.

نهض شريف فوراً، وكأنه قرأ في عينيّ نيّة القتل، وقال وهو
يتحرّك نحوي:

- معاك يا قلب أخوك، رجلي على رجلك، يلا بينا.

وصلنا إلى عمارة في قلعة الكيش، منطقة قريبة من السيدة زينب، كانت العمارة مُتهالكة وشبه مهجورة، لا يسكنها سواه هو وأبناؤه، وكأنَّ جدرانها تُشبه سواد قلبه.

صعدت درجات السلم المكسرة والغضب ينهش في صدري، وشريف يُهرول خلفي محاولاً تهدئة البركان الثائر:

- تيمور اهدأ، بلاش تتهور وتضيع نفسك.

- أنت لسه شوفت تهور! ده أنا هفرّجه النجوم في عز الظهر.

قُلْتُ كلماتي وأنا أركل الباب بكل قوّتي، فانكسر القفل واندفع الباب للداخل بعنف، وقفت على الأعتاب وأنفاسي مُتلاحقة، ثم التفتُ لشريف قائلاً بلهجة حازمة:

- خليك هنا يا شريف متدخلش، أخواتي البنات جوه كلهم محبّبين.

- طب وحياة أغلى ما عندك بلاش غشامة، ماشي؟

- موعدكش يا صاحبي.

خَطُوت لداخل الرّدهة، فخرجت لي خديجة أختي الكبرى، خديجة هي مرفأي الهادئ وسط هذه الأمواج، امرأة في بداية الثلاثينيات، ملامحها مصرية أصيلة، تمتلك وجهًا بشوشًا رغم الحزن الذي يسكن عينيها، وبشرة خمريّة صافية تجعلك تشعر بالأمان بمجرد النظر إليها.

وقفت أمامي وهي تعدّل أطراف إسدالها بارتباك:

- هو في إيه يا تيمور؟ ينفع اللي عملته في الباب ده؟ خضيتنا.

تجاهلت عتابها، وفُلت وصوتي يخرج من بين أسناني:

- فين أبوك؟

- معرفش، خرج ولسه مرجعش.

- طب فين أخوك؟

لم تَحْتَجْ للرد، لأنَّ هيثم خرج من غرفته في تلك اللحظة، هيثم هو النسخة المصغرة من أبيه، شاب في منتصف العشرينيات، ورث عن والده تلك السَّماجة، والبرود المستفز الذي يجعلك ترغب في صفعه بمجرد رؤيته.

نفث دخان سيجارته في الهواء بلامبالاة، ونظر إليَّ بنظرات فائرة وهو يقول:

- نورت يا تيمور، جاي ليه؟ خير؟

- متشوق أوي تعرف جاي ليه؟ من عيوني.

لم أمنحه ترف الرد، انقضضتُ عليه كصاعقة هبطت من السماء، انهلتُ عليه بضرباتٍ عنيفة، مُشَبَّعةً بمראה كل دمعة ذرفتُها جميلة، كان صوت ارتطام قبضتي بوجهه يملأ الرُدهة، ولم أتوقَّف حتى سمعتُ صوت كسر عظام يديه الذي دوى في المكان.

تعالَت صرخات خديجة وهي تُحاول جاهدةً جذب الكُتلة النائرة التي صرَّتْها، وعلى صياحها اندفعت سارة وخلفها هنيّة والدتهما، صرخت هنيّة وهي تدفعني بعيدًا عن جسد ابنها المُلقى كالجثة:

- ابعد عنه يا همجي، ابعد يلا، غور من هنا.

ابتعدتُ عنه أخيراً وأنا ألُهِثُ بضراوة، صدري يعلو ويهبط كأنني
خُصْتُ حرباً وحدي، نظرتُ إليها ببرود، وقُلْتُ بنبرةٍ تقطرُ سُمًّا:

- أنا مش همد إيدي على ست زي ما راجلكم عمل، بس همد
إيدي على أشباه رجالة، عشان محدش يغلط ويفتكر إن العاهة
اللي مرمي ده راجل!

تحدّثت سارة بصوتٍ يرتجف من الصدمة والخوف:

- ممكن تطلع بره؟ ومعتش تيجي هنا تاني بقا، ارحمنا!

لم أمنحها نظرةً واحدة، ولم يُكلف لساني عناء الرد، استدرتُ
وخرجتُ بخطواتٍ ثابتة رغم الفوضى التي بداخلي، تخطّيتُ
شريف الواقف على الباب بذهول، ونزلتُ درجات السلم المُتهالكة
مع أول بزوغ لخيوط الفجر، التي بدأت تشق عتمة ليل قلعة
الكبش.

لحق بي شريف وهو يحاول استيعاب ما حدث، وقال بنبرةٍ هادئةٍ
ليحتويني:

- تيمور، يلا نروّح عشان تلحق تخطفك ساعتين نوم، وأعدّي
عليك أنا ونغم بكرة عشان نروح المأمورية، لازم نفوق يا
صاحبي.

لا أتذكّر حقاً كيف استسلمتُ للنوم في تلك الليلة، كان عقلي ساحة
معركة لا تهدأ.

استيقظتُ في الصباح التالي لأجد عقارب الساعة تُشير إلى الحادية عشر، والواجب يُملِي عليَّ أن أكون في القسم بحلول الثانية عشر تمامًا.

ساد صمتٌ غريب أرجاء الشقة، صمتٌ يفتقد ضجيج جميلة المعتاد، وصوت حركتها الذي يبدأ منذ الخامسة فجرًا، ويفتقد رائحة فطورها الذي أتناوله برغم أنني أذهب بعدها لغسيل معدتي، ولجئتُ إلى غرفتها، فوجدتها غارقةً في نومٍ عميق، لم يكن من عادة جميلتي أن تنام كل هذا الوقت، فهي شُعلة نشاطٍ لا تهدأ.

اقتربتُ منها، وبدأتُ بهز كتفها برفق:

- جميلة، بت يا جميلة، قومي يلا، كفاية نوم يا كسلانة.

لم تتحرك إنشأً واحدًا، أعدتُ الكرةً بصوتٍ أعلى قليلًا، والتوتر بدأ يتسلَّل إلى نبرتي:

- قومي يا حبيبتي، الفطار فين؟ جميلة!

لكنها لم تستيقظ، وظلَّ جسدها ساكنًا بطريقةٍ بثَّت الرعب في أوصالي.

لم أنتظر لحظة واحدة، حملتها بين ذراعيَّ ولا أدري من أين أتتني تلك القوة، ونزلتُ بها الدرج ركضًا من الطابق التاسع والدُّعُر يعصر قلبي، عند مدخل الباركينج وجدتُ شريف ونغم ينتظرانني، وبمجرد أن رأوا حالتي وحالة جميلة المُزرية، قفزوا معي في السيارة، وانطلقنا كالسَّهم نحو المشفى.

كنتُ أدور في رُدْهة المشفى ذهابًا وإيابًا، عيناى لا تفارقان باب غرفة الطوارئ، أنتظر أيّ بصيص أمل من الطبيب يُطفئ النار المشتعلة في صدري، قطعت نغم حاجر الصمت وهي تقول بنبرة هادئة ومرتددة:

- تيمور، أنا أسفة إنّي بكلمك في وقت زي ده، بس لازم بمجرد ما تطمّن على جميلة تطلع على المأمورية، أنا هفضل هنا معاها ومش هسيبها لحظة، اتطمّن.

التفتُ إليها والشرر يتطاير من عيني:

- أنتِ بتقولي إيه! أسيب أختي وهي في الحالة دي؟ إزاي أصلًا يجيلك قلب تطلبي مني كده!

تدخّل شريف محاولاً تهدئة الموقف:

- نغم عندها حق يا صاحبي، ده شغل ومأمورية حسّاسة، وأنت عارف اللواء عصام مبيقبلش أعذار، والوقت بيسرقنا.

لم أستطع الرّد عليهما، فقد شلّ لساني خروج الطبيب أخيرًا وعلى وجهه علامات التجهّم والأسى، اندفعتُ نحوه كالمسلوب، ليقول بلهجة مكسورة:

- للأسف.. الأنسة اتعرّضت لاعتداء وحشي، وده أدّى لنزيف داخلي حاد نتيجة تهتك في الطحال، وضغطها واطي جدّا، إحنا عملنا اللي علينا بس هي دخلت في غيبوبة صدمة.

كنتُ دائمًا أسمع تلك العبارة في الأفلام أو أقرأها في الروايات: (دخل في غيبوبة)، كنتُ أظنّها مجرد جملة دراميّة تُقال لزيادة الحبكة، لكنها المرة الأولى التي أعيش مرارتها في حلقي.

أيّ هراءٍ هذا الذي يتفوّه به ذلك الطبيب؟ وكيف يجروّ على نطقها بكل بساطة؟ كيف لأختي، وأمي، وصديقتي، والنبض الوحيد المتبقي في عروقي أن تغيب هكذا؟ جميلة ليست مجرد اسم، هي الونس في بيتٍ كان يملؤه الجفاء، كيف يُمكنني أن أخطو خطوةً واحدة، أو أتنفّس شهيقًا واحدًا وهي غارقة في ذلك السّكون الموحش؟

شعرتُ بجدران المشفى تضيق على صدري، وكأنّ العالم كله توقّف عند تلك اللحظة، التفتُ إلى شريف ونغم وعيناوي تائهتان، كأنّني طفلٌ ضلّ طريقه في الزّحام، وسألتُ نفسي بصوتٍ لم يسمعه أحد:

- يعني إيه غيبوبة؟ يعني هنام وأصحى وملقهاش بتحضّر
الطار؟ يعني البيت هيفضل ضلّمة كده؟

قطع ذهولي صوت نغم وهي تضع يدها على كتفي بخذر:

- تيمور وحّد الله، جميلة قوية وهتقوم منها، لازم تجمد عشانها.
لم أرد عليها، بل نظرتُ ليديّ اللتين كانت برودتهما تُنافس برودة بلاط المشفى، وأدركتُ في تلك اللحظة أن تيمور القديم قد مات مع كلمة الطبيب، وأنّ القادم لن يرحم أحدًا.

بعد ساعة من الصّمت المريع، أجبرني شريف على التحرك، جرّني جرًّا نحو سيّارته لنتوجّه لبيت السيدة تيجان، وبعد نصف ساعة وقفنا أمام قصرٍ ضخّم مهيب، لكن الغريب أنه لم تكن هناك أيّ معالم للحزن أو العزاء، لا صواوين نُصبت ولا وجوهًا بكت، بل كان البيت يَضجُ بالحياة وكأنّ الموت لم يطرق بابه قط.

طرقْتُ البابَ المرةَ الأولى فلم يأتِ مُجيبٌ، طرقْتُ الثانيةَ بإصرارٍ أكبر، وظلَّ الصمتُ سيّدَ الموقف، زفرَ شريفٌ بضيقٍ ونفد صبره تمامًا، وهو يُتمتم بنبرة خائفة:

- هي إيه الناس قليلة الذوق دي؟ وسّع كده يا تيمور، الشغل ده مبيقاش غير كده.

قبل أن أستوعب ما ينوي فعله، كان قد ركل الباب بكل قوّته، لينفتح المصراعان بعُنف كاشفين عن مشهدٍ لم يخطر لنا قط. في وسط الرُدهة الفاخرة، كان يجلس رجلٌ يبدو في السّتينيات من عمره، يرتدي روبًا من الحرير الغالي، وبجانبه امرأةٌ بملابس لم أرَ مثلها إلّا على شاشات مارلين مونرو، جمالٌ باذخ يختلط بجرأةٍ غريبة.

تسمّر شريف في مكانه، ولم يستطع إزاحة عينيه عن تلك المرأة، وانفلتت منه كلمات الإعجاب بذهول:

- ده أنت راجل جامد أوي يا جدّي يخربّيتك! بتجيب النسوان الحلوة دي منين؟ ده أنا ما شوفتش حلوة كده من بعد أنجلينا جولي!

كدتُ أنسحر أنا الآخر بجمال تلك المرأة الفتّاك الذي أذهل شريف، لكن غصّة قلبي على جميلة كانت أقوى من أيّ سحر، تقدّمتُ بخطواتٍ ثابتة وصوتٍ رخيم يملؤه الوعيد، وسألته بنبرة لا تقبل المراوغة:

- مدام تيجان تقربلك إيه؟ وماتت إزاي؟ والسّت اللي قاعدة جنبك دي صِفتها إيه في البيت ده؟ عشان لو مطلعتش مراتك، ورحمة أمي هلبّسك أحلى قضية زنا تخلّص عليك.

ارتبك الرجل، وحاول لم شتات نفسه وهو يعدل من وضع الروب
الحريري، ثم أجاب وصوته يرتجف قليلاً:

- تيجان دي طليقتي، بس الحقيقة إنها كانت مريضة نفسياً،
ومكانتش راضية تفتنع إننا انفصلنا، حاولت تدمر حياتي أنا
ومراتي سحور، بإنها تعمل لينا عمل وسحر عند ست مجهولة،
وعرفنا بالموضوع ده صدفه، بعدها اختفت ومظهرتش غير لما
عرفت إنها ماتت، والشغالة بتقول إنها انتحرت.

هنا لم يتمالك شريف نفسه، فتدخل بنبرة سَمجة ومستفزة وهو
ينظر للرجل بسُخرية:

- أنت راجل كذاب ودمك ثقيل كمان، سحور إيه يا حاج اللي
بتقول عليها؟ إحنا لسه مصليين الفجر، وبعدين إحنا في رجب
مش في رمضان عشان نتسحر.

زفرت بضيق وأنا أنظر لصديقي الذي لا يفوته إفساد أي لحظة
جادة:

- تصدق وتؤمن بإيه يا شريف؟

- لا إله إلا الله، مالك يا تيمور هنكفر ولا إيه؟

- أنت واحد تافه، أنا مش عارف أنت دخلت شرطة إزاي وعملت
فيها كده!

قطعت مشاحنتنا تلك المرأة بصوتها العذب الذي ينساب
كالموسيقى، كانت ملامحها تُوحى بأنها في العشرينيات، لكن
نظراتها الثاقبة وخبرتها الماكرة، كانت تؤكد أنها أربعينية

بامتياز، كانت ترمقني بنظرة غريبة، نظرة لم أعتدها من امرأة من قبل، وكأنها تقرأ ما خلف ثيابي العسكرية، قالت بهدوء:
- أنا أعرف مكان الشعّالة، وممكن تدلّك على خيط يريّحك.
حاولتُ جاهداً غَضَ بصري عن سحرها الطاغي، وقُلْتُ بجفاء مُفَعَّل:

- طيب، اكتبيلي عنوانها في ورقة.

ابتسمت ابتسامةً غامضةً وهي تقترب خطوة:

- مش هعرف أوصفها لك بدقّة، ممكن أبعتلك اللوكيشن على رقمك الشخصي؟

قبل أن أنطق بكلمة، اندفع شريف في الحديث بلهفةٍ مُضحكة:

- طب مينفعش رقمي أنا يا ست الكل؟ أنا اللوكيشنات عندي مبتردش، وبفهم في الخرائط أكثر من تيمور بكثير.

تجاهلت اندفاع شريف الذي كاد أن يُلقي بهاتفه في حجرها، ونظرتُ إليها بجمودٍ لم يهتز، وقُلْتُ بلهجةٍ أمرّة:

- اكتبني العنوان في ورقة يا هانم، اللوكيشنات دي بنستخدمها في الفُسح، إحنا هنا في مأموريّة قتل.

ارتبكت نظراتها للحظة، وكان أحداً لم يصدّ سحرها من قبل، ثم سحبت ورقةً صغيرة، ودوّنت عليها بضعة أسطر بخطٍ رقيق، ومدّت يدها لي وهي تلمس أطراف أصابعي بتعمّد، سحبت الورقة بخشونة وخرجتُ دون كلمة، وشريف يهرول خلفي وهو يضرب كفّاً بكف:

- يا أخي حرام عليك، دي كانت هتبعثلك قلوب مع اللوكيشن، أنت قلبك ده معمول من إيه؟ جرانيت؟

ركبنا السيارة وانطلقنا نحو العنوان المكتوب، كان حيًّا شعبيًّا غارقًا في الزحام والضجيج، عكس القصر البارد الذي تركناه، وقفْتُ أمام منزلٍ مُتهالك، وسألتُ عن الشغالة زكيّة، حتى دلّنا الحيران على شقة في الدور الأرضي.

طرقْتُ الباب بقوة، ففتحت لي امرأة خمسينية، وجهها شاحب كأنها رأت شيطانًا، وبمجرد أن رأت هويتي الميري، ارتمت على الكرسي وهي تلطم خديها:

- والله ما قتلتها يا بيه، هي اللي كانت ماشية في السّكة الشمال، هي اللي راحت للست أم عزّة عشان تعمل العمل.

أمسكْتُ بتلابيب جلبابها، وهتفتُ بصوتٍ زلزل جدران الغرفة:

- ست مين؟ وانتحرت إزاي؟ انطقي بدل ما أدفك مكانها.

بكت زكيّة بحرقة وهي تُشير إلى صورة قديمة لـ(تيجان) مُعلّقة على الحائط:

- الست تيجان منتحرتش يا باشا، الست تيجان كانت خايفة من سُحور، كانت بتقول إن سُحور مش بني آدمة، دي جنيّة لابسة توب ستات، وقبل ما تموت بيوم قالتلي: (لو جرافي حاجة، فنّشي ورا العقد اللي سُحور لبساه)، العقد ده فيه سر خراب البيوت كله.

ثارت دمائي في عروقي، وضغطْتُ على يدها بقوة جعلتها تننفض رعبًا، وهتفتُ بصوتٍ رزين كفحيح الأفاعي:

- طب بُصِّي يا ست أنتِ، أنا تيمور الشاذلي، وعندي 33 سنة مش ٣ سنين عشان تضحكي عليًا بتخاريف الجن والعفاريت دي، انطقي يا ست أنتِ، تعرفي إيه ومين اللي خلّص عليها؟

انهارت زكيّة تمامًا، وانهمرت دموعها وهي تشهق برُعب:

- والله.. والله ده اللي حصل يا بيه، الست سحور هي اللي كانت ممشياها في السّكة دي، هي اللي خلّتها تروح لأم عزة عشان تعمل العمل، بس والله ما أعرف مين قتلها، أنا دخلت الأوضة لقيتها سايحة في دمها ومطعونة في بطنها وبس.

تدخّل شريف الذي بدت على وجهه علامات الجديّة لأول مرة، وقال بنبرةٍ آمرة:

- تمام، إحنا دلوقتي عايزين نروح الفيلا اللي حصلت فيها الواقعة، وعايزين نعاين الجثة حاليًا قبل ما تروح المشرحة. نظرت إلينا زكيّة بنظرةٍ فارغة، وجحظت عيناها وهي تهمس بصوتٍ مُرتجف:

- جثةٍ إيه يا باشا اللي تعainوها؟ الصراحة الست تيجان ملهاش جثةٌ أصلًا!

توقّفت أنفاسي للحظة، وقُلْتُ بذهول:

- يعني إيه ملهاش جثةٌ؟ طارت!

أجابت وهي تنتحب بحُرقة:

- أصلها يا باشا لما ماتت اتقطّعت، ومِتّاخذ أعضائها كلها، وبعدين اتحرقت عشان ميقاش لها ملامح، اللي اندفن ده كان مجرد رماد في صندوق.

صمْتُ لثوان، شعرتُ فيها ببرودةٍ تسري في أوصالي لم أعدها من قبل، تقطيع؟ حرق؟ تجارة أعضاء؟ الجريمة لم تعد مجرد انتحار أو خلاف عائلي، نحن أمام مسلخ بشري مُغلّف برائحة البخور والحريـر.

التفتُ لشريف الذي شحب وجهه هو الآخر، واختفت سكينته المعهودة، ليحل محلّها صرامة رجل المهام الصّعبة، قلتُ بصوتٍ منخفض يحمل نذير الموت:

- شريف، ارفع بصمات الشقة دي كلها، وكلّم المعمل الجنائي يفتّشوا في رماد الصندوق اللي اندفن، أنا مش هسكت غير لما أعرف مين اللي عمل في السّت دي كده.

سحبْتُ زكيّة من ذراعها برفقٍ مشوب بالحدّر:

- قومي معايا يا ست زكيّة، أنتِ دلوقتي في حمايتي، بس لو شمّيت ريحة كذب واحدة، صدّقيني مش هرحمك.

خرجنا من المنزل، وركبْتُ السيارة وأنا أهوي بقبضتي على المقود بعُنفٍ مكتوم.

كان ليل القاهرة قد بدأ يسدل ستائره الثقيلة، والوقت المتبقي لانتهاء مأموريّتنا يتآكل بسرعةٍ مُستفزة، نظرتُ للطريق أمامي وعيناوي تشتعلان ببريقٍ بارد، وقُلْتُ بصوتٍ مُنخفض:

- أنا متأكد يا شريف، اللي ورا اللي حصل لجميلتي هو سميح، أبويا هو الوحيد اللي بالوساخة دي.

زفر شريف بضيقٍ وهو يُحاول تهدئتي، وقال بنبرةٍ عملية:

- ده شيء مؤكّد يا تيمور، بس إحنا دلوقتي في ميرري لازم
نفصل، سميح حسابه جاي، بس خرينا نركز في الكارثة اللي
معانا، الست دي -زكيّة- هنودّيها فين؟ مكانها هنا خطر.

أجبته وأنا أزيد من سرعة السيارة:

- القسم طبعًا، بس مش أيّ مكان في القسم، زكيّة هي الخيط
الوحيد اللي في إيدنا دلوقتي، ومش هخطر بيها.

وصلنا إلى ديوان القسم، كان الزحام في الردهات يضج
بالأصوات والوجوه، فتخطّيت الجميع واتّجهت فورًا نحو
الشاويش صبري، الرجل الذي يعرف خبايا الجدران هنا، سحبته
جانبًا وقلّت له بلهجةٍ أمرّة:

- صبري، الست دي أمانة في رقبتك، تدخلها حجز انفرادي
خاص، وممنوع مخلوق في القسم يعرف إنها هنا، ولا حتى
المأمور نفسه، فاهم؟

نظر إليّ صبري بمكرٍ وهو يفرك أصابعه ببعضها، وقال بنبرةٍ
متهدجة:

- أوامرك يا باشا، بس الأرضية ناشفة شوية، والخدمة دي ليها
حسابها، ولا إيه؟

أخرجتُ ٣٠٠ جنيه من جيبي، كانت هي كل ما أملك في تلك اللحظة، ودسستها في يده بقوة، وأنا أقبض على معصمه مُحدِّراً:

- خُد دول، ده اللي معايا دلوقتي، بس ورحمة أمي لو حد عرف بوجودها هنا، هيكون تمنها رقبتك يا صبري.

ابتلع ريقه بصعوبة، وأخفى المال في جيبه بسرعة البرق، ثم قال وهو يُشير لركبة:

- عيب عليك يا تيمور باشا، سرّك في بير، تعالي يا ست أنت ورايا من غير صوت.

انتهينا أخيراً من عبء تلك المأمورية الثقيلة، وكنتُ أقود السيارة في صمتٍ مُريب، وشوارع القاهرة تُفر من تحت العجلات كذكرياتٍ باهتة، كان شريف جالساً بجانبني، لكنه لم يكن شريف الذي أعرفه، غابت نكاته وسكنت روحه المرحّة، ليحل محلّها وجوٌّ غريب.

قطع الصمت بصوتٍ خافت، يحمل نبرةً حزينة لم أعتدها منه:

- تيمور، هو عادي أسألك سؤال؟

- اسأل يا شريف، سامعك.

- هو الحب ممكن يبقى قاتل؟ ممكن يدمّر حد ويحوّله لحطام؟

نظرتُ للطريق أمامي، وخرجت الكلمات من جوفي كأنها نصيحة لغريب لا لنفسِي:

- الحب ده حاجة جميلة أوي يا شريف، أوعى تمنع نفسك من الشعور ده مهما حصل، بس إيه المناسبة؟ هو ده وقته يا صاحبي؟

أخذ نفساً عميقاً، وكأنه يُلقي بجملٍ جثم على صدره لسنوات:
- طب أنا بحب نغم يا تيمور، بحبها بجد.

في تلك اللحظة، ضغطتُ على المكابح بكل قوتي، صرخت الإطارات على الأسفلت صرخةً هزّت أركان السيارة قبل أن تتوقف بعنف، شعرتُ بطنينٍ في أذني: كيف له أن يُحبّها؟ لقد تعاهدنا نحن الثلاثة ألاّ نفتح أبواب قلوبنا لبعضنا أبداً، لكي لا تفسد المهنة ما بيننا من أخوة.

كنتُ أكذب عليه، الحب في أحيانٍ كثيرة لا يكون جميلاً، بل يكون سماً يسري في العروق ببطء حتى يَنْهي على صاحبه. نظرتُ إليه بذهولٍ والشرارِ يتطاير من عيني، فالحب في عالمنا نحن ليس مجرد شعور، بل هو نقطة ضعف، قد تؤدي بحياتنا جميعاً.

تحدّثتُ أخيراً بعد صمت دام طويلاً:

- أنت فاهم اللي بتقوله ده معناه إيه يا شريف؟ نغم بتعتبرنا إخوانها، وعمرها ما شافت في عيوننا غير رفقاء سلاح، غير كده نغم أصلاً مش بتفكّر في الحب دلوقتي، هي في مأمورية تانية خالص مع نفسها ومع الشغل!

هزّ شريف رأسه بأسى، وعيناه مُعلّقتان في الفراغ وراء زجاج
السيارة، وقال بصوتٍ مخنوق:

- غصب عني، مش بإيدي يا تيمور، القلب ملوش ميرى،
ومبيستأذنش قبل ما يدق.

ضحكتُ بسخريةٍ مريرة وأنا أضغط على عجلة القيادة بقوة:

- القلب اللي ملوش ميرى ده، هو اللي بيودّي صاحبه في داهية
في مهنتنا، نغم لو عرفت علاقتنا كلنا هتتبدّل، والشغل اللي بينا
هيتحول إلى لغم ممكن ينفجر في أيّ لحظة، أنت ناسي العهد يا
شريف؟ ناسي إننا قولنا قلوبنا دي عُهدَة، مبيطلعش منها غير
الرصاص؟

ساد صمْتُ ثَقِيل، لم يقطعه سوى صوت أنفاس شريف المُتلاحقة،
لم أكن أفسو عليه حبًّا في القسوة، بل كنتُ أرتعد خوفًا من أن نفقد
نغم، أو نفقد أنفسنا في دوّامة المشاعر دي.
فجأة، قطع تفكيرى رنين هاتفى، كان رقم الشاويش صبرى من
القسم، شعرتُ بانقباضة في صدري، فتحت الخط وجاءني صوته
مُرتعشًا:

- الحقني يا تيمور باشا، الست زكية...

- مالها يا صبرى؟ انطق!

- الست ماتت يا باشا، دخلت عليها لقيتها قاطعة النفس.

- طب أنا جاي دلوقتى، خليك مكانك ومتلمشش حاجة.

أغلقتُ الهاتف بعُنف، وأدرتُ عجلة القيادة بسرعة جنونية عائداً نحو القسم، كان شريف ينظر إليّ بذهول، والسكوت الذي حلّ بيننا منذ قليل تبدّد بصوت مُحرك السيارة الصّاخب:

- في إيه يا تيمور؟ قلقتني.

- الست زكيّة ماتت يا شريف، ماتت في الحجز الانفرادي اللي أنا حطّيتها فيه بايدي!

تجمّدت ملامح شريف، وسأل بنبرة يملؤها عدم التصديق:

- إزاي يعني ماتت؟ مش فاهم! دي كانت لسه واقفة على رجليها، والزنازة دي مبيفتحهاش غير صبري، ومحدث يعرف مكانها أصلاً!

لم أُجب، كان عقلي ينسج ألف سيناريو وسيناريو، زكيّة لم تكن مجرد شغالة، كانت صندوقاً أسود يحوي أسرار سُحور وتيجان، وموتها في قلب الحصن الذي ظننّته آمناً، يعني أن يد الخفيّ أطول ممّا تخيلت.

وصلنا إلى القسم، نزلت من السيارة كالعاصفة، ودخلتُ إلى ممر الزنازين، وجدتُ الشاويش صبري واقفاً يرتجف، ووجهه بلون الورق الميّت، سحبته من قميصه حتى كادت قدماه تترك الأرض:

- انطق يا صبري، مين دخل هنا؟ مين لمسها؟

قال بصوتٍ متقطّع:

- والله يا باشا ما حد دخل، أنا روحت أدّيهامياه لقيتها مرميّة على الأرض، وفي إيدها الورقة دي.

انتزعتُ الورقة من يده المُرتعشة، لم يكن فيها اسم، بل كانت مرسومة عليها عين واحدة مفتوحة، وتحتها تاريخ قديم، تاريخ وفاة والدة تيمور! شعرتُ ببرودة الموت تتسلَّل لقلبي، فالرسالة ليست مجرد بلاغ، بل هي تهديد شخصي جدًّا، ومن مجهول يعرف عني أكثر ممَّا أعرف عن نفسي.

التفتُ لشريف الذي كان يُعاين الجثة بصمت، وقُلْتُ له بلهجة مُرعبة:

- الحكاية كبرت يا صاحبي، اللي قتل زكيَّة مش عايز يداري جريمته، ده عايز يعرفني إنَّه جوَّه دمي، وبيتحرك في ظلِّي!

- اللي بيعمل كدة عايز يشنِّتْك يا تيمور، عايزنا نلف حوالين نفسنا في زكيَّة وننسى تمارا! إحنا لازم نروح لخالها حالًّا، هي المفتاح اللي هيوصلنا لآخر الخيط.

- عندك حق يا شريف، تمارا هي اللي باقية لنا من ريحة الحقيقة، يلا بنا.

انطلقنا بالسيارة، وشوارع القاهرة تضيق علينا وكأنها تُشاركنا التوجُّس، وصلنا بعد نصف ساعة إلى العنوان الذي أملاه علينا رجائي، كان منزلًا قديمًا تفوح منه رائحة الزمن، وأمامه سيارة مُتهالكة غطَّاها التراب، كأنَّها جثة معدنيَّة منسيَّة.

طرقْتُ الباب بطرقاتٍ رَسميّةٍ هادئةٍ، لتفتح لي امرأة في الخمسينيات من عمرها، وجهها يحمل تجاعيد الحيرة والتّرقب، نظرتُ إليها بابتسامةٍ هادئةٍ أحاول بها امتصاص توتّرها:

- ازيك يا أمي، هو الأستاذ موجود؟

نظرت إليّ بريية، وحركت رأسها يمينًا ويسارًا وهي تُجيب بنبرة فاترة:

- أستاذ مين يا ابني؟ أنت تايه ولا إيه؟

لم أهتز، بل حافظتُ على هدوئي وأنا أتبادل نظرة سريعة مع شريف:

- جوز حضرتك، أنا الحقيقة مش فاكِر اسمه، بس قولت أسأل عليه الأول، عشان في موضوع مهم يخص العيلة.

ضيقت عينيّ وأنا أنفخّص ملامحها المُرتعشة، كانت تُمسك بطرف الباب وكأنها تستعد لإغلاقه في وجهنا في أيّ لحظة، تدخّل شريف بأسلوبه الحَريف وهو يبتسم ابتسامة صفراء:

- معلش يا ست الكل، إحنا بس جايين في واجب، الأستاذ نصيف جوّه؟ أصل رجائي بعتنّا له بخصوص أمانة غالية.

بمجرد نطق اسم نصيف، شحب وجهها تمامًا، وارتجفت يدها على مقبض الباب، نظرت خلفها برعب نحو رُدهة البيت المظلمة، ثم عادت تنظر إلينا بصوتٍ مبجوح:

- نصيف؟ مفيش حد هنا بالاسم ده، امشوا يا ولاد الله يرضى عليكم، البيوت ليها حرمة.

وضعتُ قدمي بجمود بين الباب والعتبة، ومنعتها من الإغلاق،
تحوّلت نبرة صوتي من الود إلى الميري الصارم:

- حُرمة البيوت على عيني ورأسي، بس الهروب مش هيحل
حاجة، أنا تيمور الشاذلي، وعارف إن نصيف جوّه، وعارف
كمان إن تمارا كانت هنا، فإمّا تفتحي بالذوق ونتكلّم، إمّا هندخل
بطريقتنا والمنطقة كلها هتتفرّج.

ساد صمْتُ ثقيل، لم يقطعه إلّا صوت خُطى ثقيلة تقترب من
خلفها من الظلام، ظهر رجلٌ نحيل، شعره أشيب، وعيناه
غائرتان يملؤهما الخوف والترقب، وضع يده على كتف زوجته،
وقال بصوتٍ واهن:

- سيببهم يا إنصاف، اللي خايفين منه حصل، والمكتوب مفيش
منه مفر، ادخل يا سيادة الطابط.

دخلنا إلى صالة تفوح منها رائحة الكمّية والأوراق القديمة،
جلس نصيف على مقعدٍ مُتهالك، بينما ظللتُ واقفًا أرصده
بنظراتي الصّقرية، تنحنج شريف وقال:

- ها يا أستاذ نصيف، فين تمارا؟

نظر إلينا نصيف بعينين يملؤهما القلق والخوف على دمه، وقال
بنبرة مُرتجفة:

- معرفش والله يا باشا، بس انتوا عايزين بنت أختي في إيه؟ هي
عملت حاجة؟

أجبتُه بهدوءٍ، محاولاً طمأنته لكي ينطق:

- عايزين نعرف هي فين بس، اطمئن إحنا هنا عشان نحميها.

تنهَّد بقلَّة حيلة وأجاب:

- بُص يا باشا، هي موجودة في فندق هي وبناتها، بس أنا حقيقي معرفش مكان الفندق ده فين بالظبط، هي مأمَّنة نفسها ومبتقولش لحد.

هنا تدخَّل شريف بلهجته العمليَّة المعتادة:

- طيب رن عليها دلوقتي واسألها هي فين.

أخرج نصيف هاتفه بيد مُرتعشة وضغط على الأرقام:

- ماشي يا باشا، حاضر.

وضع الهاتف على أذنه، وبمجرد أن فُتح الخط، جاء صوت فتاة هادئ وطبيعي جدًّا:

- إيه يا خالي؟ في إيه؟

أُشْرْتُ لنصيف بحركة حازمة من يدي ألا يذكر وجودنا، أو يُشير إلينا بأي كلمة، ففهم الإشارة وقال:

- أنتِ فين يا تمارا يا بنتي؟

أجابت باستغراب:

- أنا في فندق يا خالي، ليه؟ في حاجة حصلت؟

- فندق فين يعني؟ قوليلي المكان بالظبط عشان قلبي يستريح.

- وعايز تعرف ليه يعني يا خالي؟ أنت مكنتش بتسأل الأسئلة دي قبل كده!

ارتبك نصيف للحظة، لكنه تدارك الموقف بسرعة:

- أصل.. أصل إنصاف عايزة تيجي تشقّر عليك وتشوف البنّت، وقالتلي لازم نعرف مكانك عشان متفضلش قلقانة.

صمتت تمارا للحظة، صمّتًا جعل أنفاسي تضيق، ثم قالت أخيرًا:

- طيب، أنا في فندق (سميراميس) اللي في وسط البلد، أوضة رقم 402، بس يا ريت تيجي بسرعة، عشان أنا حاسة إن فيه ناس غريبة بدأت تظهر في الممر بقالها ساعة.

انقبض قلبي بمجرد سماع جملتها الأخيرة، نظرتُ لشريف وأنا أستعد للتحرك فورًا، فالخطر لم يعد يُطاردها، بل أصبح الآن على بُعد خطوات من باب غرفتها.

بمجرّد خروجنا من المبنى، هرعنا نحو السيارة والتّوتر ينهش أعصابنا، وفي طريقنا للعنوان الذي أعطته لنا تمارا، انطلق رنين هاتفي بنغمة مُزعجة قطعت سكون المكان، كانت نغم، أحبّتها وأنا أدير المُحرّك بلهفة:

- في إيه يا نغم؟ جميلة عاملة إيه؟

- جميلة كويسة الحمد لله، الدكتور قال حالتها بدأت تستقر، أنتم وصلتم لإيه دلوقتي؟

- الموضوع طويل أوي يا نغم، هنخلص المشوار ده ونيجي على طول، سلام دلوقتي.

- تمام، مستنياكم.

وصلنا أمام الفندق، كانت بناية شاهقة ذات طرازٍ كلاسيكي قديم، تفوح من جدرانه الرُّخاميّة رائحة الاستقراطية البائدة، الإضاءة كانت خافتة، والهدوء فيه مُريب، لا يتناسب مع صخب وسط المدينة بالخارج، دخلنا فاستقبلتنا موظفة الاستقبال بلهجة عمليّة باردة:

- محتاجين حاجة يا فندم؟

- أيوة، عايزين نطلع غرفة رقم 402.

- بس الغرفة محجوزة يا فندم.

- إحنا جايين زيارة لمدام تمارا، ومعانا عِلْم بالزيارة.

- تمام يا فندم اتفضلوا، الأسانسير على اليمين.

صعدنا إلى الدور الرابع، كانت الطُّرقة طويلة ومُظلمة قليلاً، والسّجاد السّميك يمتص صوت خطواتنا، ممّا زاد من وحشة المكان، لم يكن هناك رجال أو حراسة كما توقّعت، وهذا ما أثار رَيبتي أكثر.

طرقْتُ الباب عدّة طرقات حازمة، وبعد فترة فُتِح لي الباب، وقفت أمامي امرأة في أواخر العشرينيات، كانت آية في الجمال، لكنه جمال باهت يكسوه الغموض، كانت طويلة القامة، ذات جسد

ممشوق يَنم عن رياضة واهتمام، ترتدي رداءً منزلياً طويلاً من
الحرير الأسود، يبرز بياض بشرتها الشاحب، شعرها الأسود
الفاحم كان ينسدل على كتفيها بنعومة فائقة، وعيناها الواسعتان
كانتا تحملان نظرة باردة، صلبة، وكأنها لا تخشى شيئاً.

نظرت إلينا باستغراب، وسألت:

- مين الحضرات؟

أجابها شريف وهو يبرز هويّته:

- معاك النقيب تيمور الشاذلي، والنقيب شريف الجارحي، مباحث
الجنايات.

ارتسمت على وجهها ابتسامة فاترة وقالت:

- اتشرفنا، بس للأسف مش هعرف أدخلكم، جوزي مش موجود
والوقت اتأخّر.

تنبّ نظري في عينيها مباشرةً، وقُلْتُ بجمود:

- هسألك سؤال واحد بس يا مدام تمارا.

- اتفضل يا...

- تيمور.

- اتفضّل يا أستاذ تيمور، سامعك.

- ليك علاقة بقتل الست مديحة؟

لم يطرف لها جفن، بل سألت ببرود قاتل:

- ومين مديحة دي؟

- عمّتك، اللي قتلت أهلك وماتت محروقة.

ضحكت بسخرية مريرة وقالت:

- طب كويس، ربنا يجحمها مطرح ما راحت، ها عايزين مني إيه تاني؟

- ليك علاقة بموتها، صح؟

- لا.

- وإيه يخليني أصدّقك؟

- إن أنا كنت مسافرة أصلاً وقتها، والجواز بتاعي يثبت ده.

- بس أنتِ نزلتِ من السفر قبل الجريمة بساعات يا تمارا، وده وقت كافي جدًا لتدبير محرقة.

- ودا أكبر دليل إن مليش دعوة، لو كنت ناوية أقتلها، مكنتش جيت في وقت يخلّي الشُّبهات تحوم حواليا كده! أنا مش غبيّة.

- طب ما يمكن اتّفقتِ مع حد يعمل كده عشان تبعدي الشبهات عنك، وتعملي لنفسك (أليبي) أو حجة غياب قوية؟

اقتربت خطوة، وبريق التحدي يلمع في عينيها:

- مش أنا اللي بعمل كده يا سيادة المُقدّم، أنا لو عايزة أخلص من حد، بخلص منه بأيدي وفي وشه، مش من ورا ظهره.

فقد شريف صبره تمامًا، وتقدّم خطوة نحوها، وهو يوجّه كلامه إليها بعصبية واضحة:

- طب يا مدام، هتنتقي بالذوق وتخلصينا، ولا نعرف بطريقتنا إحنا؟ والميري مبعرفش يا ستّي!

لم تهتز شعرة واحدة من رأسها، بل نظرت إليه ببرودٍ يُثير الجنون، وقالت:

- ويا ترى إيه هي طريقتكم؟ لو فاكرين إنكم هتلاقوا حل لغز القضية دي عندي، فأنتم كدة بتضيعوا وقتكم، اللي حصل لعمتي ده عقاب ربنا، والمظلوم دايمًا بياخذ حقه ولو بعد حين.

تدخلت في الحوار بصوتٍ هادئٍ ورزين، لكنه يحمل نبرة وعيد:
- بس عقاب ربنا الحقيقي بيكون في الآخرة يا تمارا، مش في الدنيا بالبنزين والكبريت.

ابتسمت ابتسامةً صفراء، وقالت بتشقي:

- تمام يا شيخ تيمور، اعتبرها زيّ ما تعتبرها، المهم إن أنا مليش دعوة، والباب ده مش هيفتح أكثر من كده.

كانت تهم بإغلاق الباب في وجوهنا، لكنني كنتُ أسرع منها، وضعتُ قدمي بجمودٍ صخري بين العتبة والباب، ومنعتها من الحركة، اقتربتُ بوجهي منها حتى لحت أنفاسنا، وقُلْتُ بصوتٍ منخفض:

- لما النقيب تيمور الشاذلي يكلمك، متفكرش تقفلي الباب في وشه، ويوسي إيدك وش وضهر إنك ست والقانون بيحكمني، وإلاّ كان زماني بتعامل معاك بأسلوب تاني خالص.

نظرت إليّ بتحدٍّ غريب، وبحركةٍ مُباغطةٍ ومستفزةٍ، رفعت يدها وقبّلتها بالفعل وش وضهر، وهي تُثبّت عينيها في عينيّ بلا خوف، وقالت ببرود:

- أهو، بوستها! فيه حاجة تانية يا سيادة النقيب؟ ولا لسه فيه أوامر تانية أنفذها؟

وقفتُ مكاني لثوانٍ، والدهشة والذهول يُسيطران عليّ من قوة شخصية هذه السيدة وجبروتها، لقد واجهتُ غُتاة الإجرام، لكنني لم أرَ قط مثل هذا الثبات الانفعالي، شعرتُ بالهزيمة الداخلية، لقد خرجنا من هذا اللقاء دون أن نأخذ منها خيطًا صغيرًا واحدًا، بل تركتنا غارقين في بحرٍ من الاستفهامات.

استشاط شريف غضبًا، وفقد صوابه تمامًا أمام برود هذه المرأة المُستفز، فصاح بنبرةٍ حادةٍ وهو يُشير بإصبعه نحوها:

- طب بُصي يا ست أنتِ، إحنا هنجي تاني بكرة عشان الوقت اتأخّر دلوقتي، والظاهر إن الكلام معاك محتاج نفّس طويل، بس خليك فاكرة، لو فكّرتِ تمشي من هنا أو تهربي، هتندمي ندم عمرك!

لم تُكلّف نفسها عناء الردّ، بل أغلقت الباب في وجوهنا بعُنفٍ جعل جدران الممر تهتز، وكأنها تُعلن انتهاء جولة لم نربح فيها شيئًا، مشيتُ بخطى ثقيلة، وشريف يهرول خلفي والغيط ينهش ملامحه، فقلْتُ بصوتٍ مُنخفض:

- ست قليلة الذوق، بس شكلها مخبّية ورا البرود ده بلاوي يا شريف، الهدوء ده مش طبيعي أبدًا.

ركبنا السيارة، وساد صمتٌ ثقيل لم يقطعه سوى صوت المُحرّك،
كان شريف يشغل نفسه بهاتفه، لكنني لاحظتُ نظراته الزائغة،
فقلتُ له دون أن ألتفت:

- مالك يا شريف؟ لسه بتفكر في تمارا؟

تنهّد بعمق، ثم قال بنبرة خافتة يملؤها التردد:

- لا يا تيمور، بفكر في نغم، مش عايزها تعرف أي حاجة عن
اللي قالهولي قلبي ده، ولا عن قلقي عليها، نغم لو عرفت الدنيا
هتتعد أكثر، وإحنا مش ناقصين خيوط تنتقطع.

أومأت برأسي موافقاً، وأنا أزيد من سرعة السيارة:

- أحسن يا شريف، خليك مركّز في الميري دلوقتي، القلوب لما
بتدخل في الشغل، بتخلي الرصاص يطيش.

وصلنا إلى المشفى، حيث كانت رائحة المطهرات والهدوء
المُوحش يستقبلاننا، وجدنا نغم تقف أمام باب غرفة العناية
المركزة، عيناها مُتعبتان لكنهما تلمعان بالأمل، حين رأت تيمور
اقتربت منّا بلهفة:

- حمد لله على السلامة، طمنوني عملتوا إيه؟

تجاوزت سؤالها برتبة خفيفة على كتفها، وقلتُ وعيني على
زجاج الغرفة:

- مش دلوقتي يا نغم، المهم جميلتي عاملة إيه؟

فتحت لنا نغم الباب بهدوء، فدخلنا لنجد جميلة مُلقاة على الفراش الأبيض، كأنها ملائكة نائم وسط غابة من الأجهزة والأسلاك، اقتربت منها، أمسكت يدها الباردة وقبّلتها، وهمست في أذنها وكأني أناشد روحها الغائبة:

- قومي يا جميلة، قومي عشان تيمور مش عارف يحارب الدنيا لوحده، والبيت من غيرك بقى قبر بارد.

كان شريف يقف عند قدميّ السرير، يُراقب المشهد بصمتٍ وجلال، بينما كانت نغم تُراقبنا من بعيد، والدموع تحبس نفسها في عينيها، في تلك اللحظة لم نكن ضبّاطاً في مأمورية، بل كنّا بشرًا يحاولون التمسك بآخر خيط من الحياة في جسد جميلة.

تنحنحت نغم بخفّة، وحاولت جاهدةً رسم ابتسامةٍ غامضة على وجهها المُتعب، ثم همست لي:

- تيمور، ممكن كلمة برّه الأوضة؟

أومأت برأسي وخرجتُ معها، وكنتُ أشعر بنظرات شريف تخترق ظهري، كأنها نصلٌ من نار، كان قلعه يسبق خطواتنا، وقفنا في طُرقة المشفى الباردة، فبادرتني نغم بسؤالها الفضولي:

- تيمور قولي الحقيقة، إيه اللي حصل ثاني في المأمورية دي؟

زفرتُ بضيقٍ وأنا أستاذ إلى الجدار:

- والله يا بنتي وصلنا لتمارا فعلاً، بس دي ست عنيدة أوي، وعقلها سيم، مطلعناش منها بكلمة تبرد نارنا.

لمعت عينا نغم ببريقٍ مُفاجئ، وقالت وهي تشبك أصابعها
ببعضها بحماسٍ طفولي:

- طيب سيبك من تمارا دلوقتي، أنا عندي خبر حلو أوي، كنت
ناوية أقوله لشريف وللكل لما جميلة تفوق بالسلامة، بس هقولك
أنت الأول لأنك أخويا الكبير وسندي.

ابتسمتُ لها بوَدِّ حقيقي، وقلْتُ وأنا أمسح على رأسها:

- قولي يا قلب أخوك، فرّحيني وسط الغم ده.

قالتها بلهفةٍ جعلت قلبي ينقبض دون سبب:

- تيمور، أنا هتخطب.

سقطت الكلمة عليّ كالصّاعقة، ليس لأنني لا أتمنّى لها الفرح، بل
لأنني تخيلتُ في تلك اللحظة وجه شريف القابع خلف الباب،
شريف الذي كسر عهدنا للتوّ واعترف بحُبّها، شعرتُ بأنّ
المأمورية الحقيقية بدأت الآن، مأمورية حماية قلب صديقي من
التحطّم أمام سعادة أختي الصغرى.

قطع حبل أفكارِي المشدودة صوت خديجة، وهي تهزول داخل
رُدهة المشفى بخُطى متعثرة، وصوت أنفاسها يسبقها:

- تيمور طمّني، جميلة عاملة إيه يا حبيبي؟

نظرتُ إليها بتقديرٍ وحزنٍ دفين، وحاولتُ أن أكون متماسكًا
أمامها:

- خديجة، ازيك؟ كتر خيرك إنك جيت في الظروف دي، جميلة
كويسة الحمد لله، الدكتور طمّنا وقال قدامها 24 ساعة وتبدأ
تفوق.

وقعت نظرات خديجة على نغم الواقعة بجانبنا، فتبدلت ملامحها لغموضٍ مُريب، وكأنها تحمل سرًّا لا يجب أن يخرج لغير أذني:
- تيمور، أنا عايزاك في كلمتين لوحدها لو سمحت.

فهمت نغم الموقف بذكائها المعهود، فانسحبت بهدوء، وتركنا وسط ممر الممرضين المُنشغلين بحالات الطوارئ، استندتُ إلى جدار المشفى، ونظرتُ لخديجة بتساؤل:
- ها يا ستي، قولي اللي عندك، عايزاني في إيه؟ وشك مخطوف كدا ليه؟

اقتربت مني، وهجست بصوتٍ يملؤه التوجّس:
- أنت تعرف أبويا فين يا تيمور؟ من ساعة ما جيت لينا آخر مرة وسألت عليه وهو ملوش أثر، مختفي تمامًا.

ضحكتُ بسخريةٍ مريرة، وصوتي يرتفع رغم عني:
- وأنا إيش عرّفتني مكان أبوك فين يا خديجة؟ ده أنا لو عرفت مكانه هقتله بإيدي، هو السبب في كل اللي جميلة فيه ده، بس اصبري عليّا أخلص المهمة دي، وأنا هعرف أجيبه من تحت الأرض.

تمسّكت خديجة بقميصي برُعب، وقالت:
- طب يا تيمور أبوك مختفي ومش ظاهر خالص، وهيثم قالب الدنيا، وبيقول إنك أنت السبب، بيقول إنك قتلته وداريت جثته.

تراجعتُ خطوة للخلف وأنا أنظر إليها بذهولٍ، والشرار يتطاير من عيني:

- يعني أنا اللي بقالي ليالي مش بنام، وبدور مين القاتل ومين المقتول، هروح أنا أقتل؟ هي حصلت يتهموني بدم أبويا كمان!

نظرت إليّ خديجة بعيونٍ دامعة، وكأنها تستجدي الأمان من الشخص الوحيد الذي تثق به في هذا العالم:

- طيب يا تيمور، أنا همشي دلوقتي، بس بالله عليك دور على أبويا وجيبه، قلبي واكلمي عليه أوي.

حاولتُ أن أبتلع غصةً مريرة في حلقي، وأجبتها بنبرةٍ حانية لم تخرج إلّا لها:

- ماشي يا ديجا، هدور عليه عشان خاطر عيونك أنتِ بس، اطمّني.

جذبتها إلى صدري واحتضنتُها بقوة، فخديجة أختي كانت كنسمة هواء رقيقة في وسط هذا الغبار، إنسانة لا تؤذي أحدًا، ولا تستحق أن يؤذيها أحد، وكنْتُ مستعدًا لحرق العالم كي تظل براءتها كما هي.

ودّعتها ودخلتُ إلى الغرفة مرة أخرى، لأجد صمناً ثقيلاً يطبق على الأنفاس، كان شريف ونعم يجلسان بعيدًا عن بعضهما، كلّ منهما يُحدّق في هاتفه بتركيزٍ مُريب، وكأنّ الكلمات قد هربت منهما، نظرتُ إليهما بتعجّب وسألت:

- في إيه يا جماعة؟ مالكم ساكتين كده ليه؟

تبادلا نظرةً سريعةً مليئةً بالارتباك والوجوم، ثم التفتا إليّ، كان شريف هو مَنْ نطق أولاً، وصوته يحمل نبرةً لم أعدها فيه من قبل، نبرة يختلط فيها الأسى بالصدمة:

- تيمور، الخبر لسه نازل حالاً، يقولوا لقوا أبوك مقتول، وجثته مرميةً في الفندق الخاص ببيك!

تجمّدت الدماء في عروقي، وشعرتُ بأن الأرض تميد بي، لم أستوعب ما قاله، أهذا هراءٌ جديد يُطاردني؟ هل كُتِب عليّ أن يُلاحقني هذا الرجل بلغناته في دُنياه، ويأبى إلا أن يُلطّخ سُمعتي بدمه حتى في آخرته؟

سقطت الكلمات على مسامعي كالمطارق، فندق تيمور الشاذلي أصبح الآن مسرحاً لجريمة قتل صاحب الدم، والقاتل والمقتول كلاهما ينهشان في اسمي أمام العالم.

شعرتُ للحظة أن الغرفة تدور بي، والجدران البيضاء تضيق حتى كادت تلامس كتفيّ، لم يكن الخبر صدمةً لموت أب، بل كان صدمةً فُح مُحكَم الإغلاق، فُح نُصِب لي بعناية فائقة، وفي أكثر الأماكن التي أوْمَن بها، فُنْدقي الخاص.

التفتُ لشريف الذي كان ينظر إليّ بنظرة يملؤها العجز، وقُلْتُ بصوتٍ خرج أجوّفاً، كأنه آتٍ من بئرٍ سحيق:

- فُنْدقي أنا يا شريف؟ أنت متأكد من اللي بتقوله ده؟

أوماً شريف برأسه، وهو يبتلع ريقه بصعوبة:

- الخبر لسه واصل العمليّات يا تيمور، القوة اتحرّكت لهنالك، وهيثم واقف قدام الفندق، وبيلم الناس وبيصرخ إنك أنت اللي عملتها عشان تخلص من تهديده ليك.

ضحكت ضحكةً هيسيريّة، ضحكةً لم تكن تحمل من الفرح شيئاً:

- يقتلني في دنيتي بظلمه، ويلحقني في آخرته بدمه! الراجل ده مش ناوي يسيبني أنفـس حتى وهو جنة، عايز يجزني معاه للقبر بالعافية.

تدخلت نغم وهي تضع يدها على ذراعي محاولةً تهدئتي:

- تيمور اهدأ، إحنا لازم نتحرك فوراً قبل ما الأمور تخرج عن السيطرة، هيثم مش هيسكت، والنيابة زمانها في الطريق.

نفضت يدها عني برفق لكن بحزم، وسحبت مفاتيح سيّارتي، وسلاحـي الميري الذي بدا ثقيلاً بشكلٍ مُفاجئٍ في جنبي:

- نغم خليك هنا مع جميلة، متسيبيهاش لحظة، شريف أنت معاياً؟ ولا خايف تلوث بدلتك بدم ابن قاتل أبوه؟

نظر إليّ شريف بعتابٍ حاد، ثم سحب سترته وقال بكلمة واحدة:

- قدامي يا تيمور، عيب تقول كدة لصاحبك.

خرجنا من المشفى، والجو في الخارج كان قد أصبح خانقاً رغم برودة الليل، ركبنا السيارة وانطلقنا بها كالمجنون، كنتُ أشعر أنني لا أقود سيارة، بل أقود قنبلة موقوتة، ستنفجر في وجهي بمجرد وصولي.

قُلْتُ لشريف وأنا أتخطّى السيارات برعونة:

- أنا شاكك إمّا تمارا أو سُحور.

أجاب شريف وهو يُراقب الطريق بتوجّس:

- ولو طلّعوا مش همّا تلبّس نفسك مصيبة وخلاص!

لم أجبّه، كان عقلي يغلي، وصلنا أخيراً أمام الفندق، وجدتُ سيارات الشرطة تُحاصر المكان، وصوت هيثم يملأ المنطقة، وهو يُشير إلى المبنى ويصرخ:

- هو ده، تيمور الشاذلي هو اللي قتله، الطباطب اللي بيطبق القانون هو اللي دبح أبوه عشان يورثه ويخفي بلاويه!

نزلتُ من السيّارة ببرودٍ غريب، برودٍ استلهمتهُ من تمارا نفسها، مشيتُ وسط الحشود، وعيوني مُعلّقة على باب الفندق، كنتُ أعلم أنّ ما سأراه بالداخل سيُغيّر مجرى حياتي للأبد.

دخلتُ إلى الغرفة، ليصفعني المشهد الذي غيّر مجرى حياتي للأبد، كان أبي مُمدداً هناك، مقتولاً بنفس الطريقة البشعة التي لُقت بها مديحة حتفها، لكن الفرق كان مُرعباً، كان مذبحاً وأجزاء من أعضائه مفقودة، وكأنّ القاتل لم يكتفِ بروحه، بل أراد التّنكيل بجسده، تراجعتُ للخلف وأنفاسي تتلاحق بصعوبة:

- شريف، أنت شايف اللي أنا شايفه؟

أجاب شريف وهو يتفحّص المكان بدُّهول:

- تيمور، الموضوع كبير أوي، إزاي القاتل عرف يوصل لحد من أهلك؟ وأنت حياتك الشخصية متقلّ عليها بالضّبة والمفتاح، ومحدث يعرف عنها حاجة!

- معرفش، حتى زكيّة اللي كانت الخيط الوحيد اللي هيوصلني، ماتت قبل ما تنطق بكلمة.

سحبني شريف من ذراعي وهو يهمس بخذر:

- طب بُص، تعالا نطلع من هنا حالا، الشك هيبدا يحوم حواليك أنت، وهيتم اتّهامك فورًا.

- وليه الشك يبجي فيا؟ هو مفيش بصمات؟ مفيش أدلة تبرّاني؟

- اسمع كلامي يا تيمور، لازم نروح لتمارا فورًا، قبل ما تلحق تهرب لو كانت هي القاتلة، وجودنا هنا دلوقتي خطر عليك.

- أنا حاسس إن مش هي اللي عملتها بس ماشي، يلا بينا.

وصلنا أمام الفندق مرة أخرى، وصعدنا لغرفتها وطرقْتُ الباب بعُنف، بعد ثوانٍ فتح لنا رجلٌ ثلاثيني، ضخم الجسد، ذو ملامح خَشينة وشعرٍ أشعث، كان يرتدي قميصًا داخليًا يُبرز عضلات صدره، ووشمًا غير مفهوم على ذراعه، نظر إلينا باستغراب، وسأل بلهجة غليظة:

- عايزين حاجة يا حضرات؟

تحدّث شريف بلهجة رسمية جافّة:

- مدام تمارا موجودة؟

- أيوة موجودة، عايزينها في إيه؟

أجبته أنا هذه المرة، مُحاولًا إخفاء نيران الغضب المشتعلة في صدري:

- فيه شغل جايلها، هدية خاصة ومحتاجين نسلمهاها بنفسنا.

التفت الرجل ونادى بصوتٍ جهوري، كدنا أنا وشريف أن نخرج
من ثيابنا بسببه:

- تمارا.. بت يا تمارا!

ثم عاد يوجّه كلامه لنا بريبة:

- أنتم حكومة، صح؟

- صح.

- وعايزين مراتي في إيه بقا؟ قولوا الصراحة.

- عايزينها في موضوع بخصوص مقتل الست مديحة بس.

- يا باشا والله هي ما قتلت حد، دي غلبانة ومبتعرفش تمسك
سكينة حتى.

هنا تدخل شريف بخُبثٍ وهو يُضَيِّق عينيه:

- بس بتعرف تولّع كبريت، صح؟

في تلك اللحظة، خرجت تمارا من الغرفة، كانت ترتدي فستانًا
بسيطاً من القطن الرمادي، وشعرها ملموم بإهمال، لكن برودها
المُعتاد كان يُغَلِّف وجهها كقناعٍ حديدي، نظرت إلينا وقالت بملل:
- أنتم تاني؟ طب أنا نازلة أفطر، تعالوا تحت نتكلّم، ملوش لزوم
الشوشرة هنا.

جلسنا أخيراً على طاولة الطعام في ركنٍ هادئٍ بالمطعم، وبعد نصف ساعة من الصمت الذي لم يقطعه سوى طلب الطعام، بدأتُ المواجهة:

- دلوقتي يا مدام فيه حد تاني اتقتل بنفس طريقة الست مديحة، الفرق بس هو الحرق، فدلينا مين قتل مديحة عشان نعرف مين قتل الشخص التاني، واللي أنا متأكد منه إنك أنتِ اللي ورا مقتل مديحة.

أجابت وهي تتناول قطعة من الخبز ببرود:

- مليش في القتل، هلوث إيدي ليه؟

خبط شريف على الطاولة بعصبية جعلت الأطباق تهتز:

- بقولك إيه، شغل البرود ده بلاش منه معايا، انطقي!

- والله إجابتي واضحة، دي تصاريف قدر، أو يمكن جن، وبعدين أنا كنت مسافرة، إيه اللي يخليني أقتلها؟

اتكأْتُ بظهري على الكرسي، ووضعتُ رجلاً فوق الأخرى ببرودٍ مُماثل لبرودها، وفُلتُ لها بهدوءٍ مُخيف:

- فكَرتك أذكى من كدة يا تمارا، لما تحبِّي تعرفي مين هو تيمور الشاذلي، ادخلي اسألني جوجل أو Chat GPT عنه، هيقولك إنه قبل ما بيدخل أيّ مأمورية، بيحجب قرارها وقرار اللي شغالين فيها من يوم ما اتولدوا.

- وعلاقة ده إيه بكلامي؟

- علاقته إنك بتكرهى مديحة كُره العمى، بالذات بعد ما قتل
أهلك كلهم، وأمك وأبوك، ورمتك في الشارع وأنت لسه عيلة
صغيرة، وده مُبرر كافي جدًا إنك تحرقى قلبها زي ما حرقت
قلبك، بس مش مبرر إنك تنكري!

ضاقت عيناها، واختفت تلك الابتسامة الباردة، ليحلّ محلّها
غضبٌ مكتوم، جعل عروق رقبتها تبرز بوضوح، دفعت طبق
الطعام بعيدًا عنها بحدّة، وقالت بصوتٍ فحيحه يُشبه الأفاعي:

- بقولك إيه يا سيادة النقيب أنت وشريكك ده، أقسم بالله لو جيتوا
تاني هنا، أو حاولتوا تفتحوا السيرة دي، هتشوفوا حاجة تزعلكم
بجد، أنا مش مُجبرة أقعد هنا وأبرّر لكم حاجة مليش يد فيها،
والباب اللي فوّت جمل يفوّت ١٠٠ زيكم!

هنا مال شريف بجسده نحوها، وعلى وجهه تلك الابتسامة
المستفزة التي يُتّقها جيّدًا، وقال ببرودٍ لا يقل عن برودها القديم:

- طب برّاحة بس يا مدام، مالك انفعلتِ كده ليه؟ ده حتى الكلام
أخذ وعطا، وإحنا لسه بنقول يا هادي في دردشة عائلية لطيفة.

نظرت إليه بشرّ، ثم التفتت إليّ وكأنها تتجاهل وجوده تمامًا:

- الكلام خلص يا تيمور، وأهلي اللي ماتوا دول حسابهم عند
رَبنا، مش عند ظابط جاي يدوّر على بطولة زائفة على قفايا!

فُمتُ من مقعدي ببطء، وعدلتُ هندام سُترتي الميري، وأنا أنظر
في عينيها مباشرة:

- البطولة مش غاييتي يا تمارا، غاييتي هي العدالة، والعدالة
مبتعرفش لا حزن قديم ولا انتقام متأخر، أنا همشي دلوقتي، بس

خليك فاكرة.. اللي قتل أبويا في فندقي، استخدم نفس الكتالوج
اللي قتل مديحة، وده معناه إن القاتل واحد، أو تلميذ شاطر بيقلد
أستاذة!

خرجنا من المطعم، وكان الصمت يسود بيني وبين شريف حتى
ركبنا السيارة، كسر شريف الصمت وهو ينظر للمرأة الجانية:

- تيمور، الست دي اتغلّت من جواها لما نطقنا سيرة أهلها، هي
وراها حاجة، بس مش هي اللي بتدبح يا تيمور، دي روحها
شيطانية بس إيدها ناعمة زيادة عن اللزوم.

قلتُ وأنا أضغط على عجلة القيادة بقوة:

- عارف يا شريف، تمارا هي العقل، بس مين الإيد؟ مين اللي
دخل الفندق ودبح سميح، ونكل بجنته بالطريقة دي؟ ومين اللي
مصلحته يلبسني أنا القضية؟

في تلك اللحظة، رنّ هاتفي مرة أخرى، كان رقمًا دوليًا غير
مُسجلًا، فتحت الخط وجاءني صوتُ أجش، مشروخ، وكأنه
يخرج من تحت الأنقاض:

- تيمور الشاذلي، عجبك المنظر في الفندق؟ دي كانت مجرد
مُقبّلات، الطبق الرئيسي لسه في المستشفى، عند جميلة!

تجمّدت الدماء في عروقي، صرختُ في الهاتف والجنون
يتملّكني:

- أنت مين يا حيوان؟ لو لمست شعرة منها هحرقك حي!

لكن الخط قُطع، نظرت لشريف بصدمة وُقِلت:

- المستشفى يا شريف! جميلة في خطر!

قطعتُ المسافة إلى المشفى في ربع ساعة فقط، مُحركُ السيارة كان يصرخ تحت وطأة قدمي التي لم ترحم دواسة البنزين، بمجرد توقفي لم أنتظر المصعد، بدأت الركض على السلالم بخطوات جنونية، وقلبي يسبقني في كل درجة، لا أشعر بقدمي، ولا بالهواء الذي بدأ ينفذ من صدري.

وصلتُ إلى الدور المنشود، اندفعتُ نحو غرفة جميلة، وفتحتُ الباب بقوة كادت تخلعه من مفصله، توقفتُ مكاني وأنفاسي تخرج بصوتٍ مسموع كحشرة الموت، نظرتُ حولي بذعر، لكن يا للغرابة!

كان الهدوء يطبق على أركان الغرفة، نغم نائمة بسلام على الكرسي الجانبي، ورأسها مائل قليلاً للخلف، وجميلة كما هي، جسدها الهزيل مُمدد تحت الأغشية البيضاء، وصوت أجهزة القياس المنتظم هو الوحيد الذي يكسر صمت المكان.

بدأتُ أرخي أعصابي تدريجياً، وأسحبُ أنفاسي بهدوء وأنا أمسح العرق عن جبينني، حمدتُ الله في سري أن التهديد كان مجرد لعبة أعصاب قذرة، لكن فجأة تجمّدت الدماء في عروقي، وتساءلتُ بذعر:

- هو شريف فين!

التفتُ خلفي نحو الممر الطويل المُظلم، كان شريف يركض خلفي خطوة بخطوة على السلام، بل كان يسبقني في بعض اللحظات، كيف اختفى الآن؟ ولماذا لم يدخل الغرفة خلفي؟

خرجتُ للممر مرة أخرى، وأنا أنادي بهمسٍ خَير:

- شريف، أنتَ فين يا شريف؟ متهزّرش يا صاحبي، ده مش وقت هزارك البايخ!

لا رد سوى صدى صوتي الذي يرتد من جدران الممر الباردة، مشيتُ خطواتٍ بطيئةً نحو السّلم الذي صعدنا منه، وإذ بي ألمح شيئاً يلمع على الأرض بجانب باب الطوارئ، انحنيتُ ببطء والشك ينهش قلبي، كان جهاز اللاسلكي الخاص بشريف، وبجانبه بقعة صغيرة من الدم، بدت وكأنها رسالة جديدة كُتبت على عجل. في تلك اللحظة، رنّ هاتفي مرة أخرى، نفس الرقم الدولي المجهول، فتحتُ الخط وأنا أرتجف غضباً:

- ودّيت شريف فين يا روح أمك، انطق!

جاءني الصوت الأَجَش مرة أخرى، لكن هذه المرة بضحكةٍ مكتومة تقشعر لها الأبدان:

- شريف أمانة عندنا يا سيادة النقيب، أصلنا لقيناه مهتم بتمارا زيادة عن اللزوم، فقلنا نخلّيه يشقّر عليها في مكان ثاني خالص، مكان ميعرفوش غيرك أنت وأبوك المرحوم.

صرختُ في الهاتف وأنا أعتصر قبضة يدي على اللاسلكي الذي وجدته:

- طب اسمع بقا، تمارا هتبقى أمانة عندي أنا كمان لحد ما ترجعلي شريف، والبادئ أظلم!

أغلقْتُ الهاتف في وجهه ولم أنتظر ثانية واحدة، استدرتُ وبدأتُ أركض بكل ما أوتيتُ من قوة، مُتجاهلاً نغم النائمة، وجميلة التي لا حول لها ولا قوة، نزلتُ الدرج في قفزاتٍ واسعة، ركبْتُ السيارة وانطلقتُ بها كالسَّهم في اتجاه الفندق مرة أخرى، كانت الشوارع تتلاشى من حولي، وعقلي لا يرى سوى وجه شريف وهو يختفي في ذلك الممر الملعون.

وصلتُ إلى الفندق، نزلت من السيارة والشرار يتطاير من عيني، ركضتُ نحو المصعد، وحين وجدته متوقفاً، اندفعتُ نحو السلالم وسط صرخات الأمن الذين حاولوا إيقافني:

- يا فندم مينفعش كده، يا سيادة النقيب فيه إجراءات!

تجاهلتهم جميعاً، كان هدفي الوحيد هو الطابق الرابع غرفة رقم 402، وصلتُ أمام الباب، طرقته عدّة طرقاتٍ عنيفة كادت تخلع الخشب من مكانه، لكن لم يفتح أحد، ولم يكن هناك أي صوت بالداخل.

لم أعد أحتمل الانتظار، تراجعْتُ خطوة للخلف، ثم اندفعتُ بكامل ثِقلي وركلتُ الباب ركلةً قوية أطاحت بالقفل وكسرت الحواجز،

سقط الباب أرضاً محدثاً صوتاً دَوَّى في الممر كطلقة رصاص، دخلتُ وسلاحي في يدي، لكن الغرفة كانت هادئة تماماً.

كانت رائحة عطر تمارا الباردة لا تزال عالقة في الجو، لكن الغرفة كانت مُرتَّبة بشكلٍ مُريب، وكأنَّ أحدًا لم يسكنها قط، نظرتُ حولي بجنون، قلبتُ المقاعد، فتحتُ الخزانة، صرختُ بأعلى صوتي والغیظ یمزق حنجرتي:

- يا ولاد الكلب!

لقد هربت، هربت مع ذلك الرجل الضخم في اللحظات التي كنتُ فيها أركض نحو المشفى، لقد كان الفندق مجرد طُعم لشغلنا، بينما كانت العين تراقبنا وتنتظر اللحظة المناسبة لاختطاف شريف، شعرتُ بالهزيمة تدبحني، فأنا الآن خسرتُ أختي، وخسرتُ شريف، وخسرتُ الخيط الوحيد الذي كان سيوصلني للحقيقة.

ركبتُ السيارة وأنا أضرب المقود بكلتا يداي، الغضب يغلي في عروقي كالحجم البركانية، لم يكن أمامي سوى خيط واحد متبقٍ، خيط نصيف، هو مَنْ أعطاني العنوان، وهو مَنْ سلَّمني الفلاشة، ومن المؤكد أنه يعرف أين ذهبت تمارا حين تضيق عليها الأرض.

انطلقتُ بالسيارة كالمجنون نحو ذلك الحيِّ القديم، لم أهتم بإشارات المرور، ولا بصرخات المارة، وصلتُ أمام المنزل، نزلتُ من السيارة والشَّرار يتطاير من عيني، لم أطرق الباب هذه المرة بهدوء، بل ركلته بقدمي صائحاً بأعلى صوتي:

- نصيف، افتح يا نصيف بدل ما أهد البيت ده فوق دماغكم!
فتحت إنصاف الباب وهي ترتجف، وجهها كان شاحبًا كالرَّماد،
وبمجرد أن رأنتي حاولت إغلاق الباب، لكنني دفعته بقوة ودخلتُ
كالعاصفة:

- فين نصيف؟ انطقي يا ست أنتِ!
خرج نصيف من الغرفة الداخلية وهو يرتدي جلبابه الأبيض،
وجهه كان يحمل علامات الانكسار والخوف، وقال بصوتٍ
مُرتعش:

- في إيه يا تيمور باشا؟ إحنا عملنا إيه تاني؟ والله ما نعرف عنها
حاجة من ساعة ما مشيت.

سحبته من ياقة جلبابه حتى كادت قدماه تترك الأرض، وحشرته
في زاوية الحائط، وسلاحي الميري يُلامس رقبتة:

- اسمع يا نصيف، اللعب خلص! شريف الجارحي اتخطف،
وتمارا هربت من الفندق، وأبويا اتدبح في فندقي، كل ده حصل
في ساعة واحدة، قولي تمارا راحت فين وإلا قسمًا بالله ما
هرحمك ولا هرحم مراتك.

ابتلع نصيف ريقه بصعوبة، ونظرْتُ في عينيه فوجدتُ صدق
الخوف، لكنه كان يخفي شيئًا آخر، شيئًا يُشبه الشفقة على حالي
وما وصلت إليه، قال بنبرةٍ متهدّجة:

- والله يا ابني ما أعرف مكانها فين، اللي أعرفه إنها كانت في
الفندق وبس، ومن ساعة ما مشيت من هنا ما شوقتش وشها.

نظرتُ إليه وأنا أضغط على سلاحي أكثر، والشّرار يتطاير من عيني، وصوتي خرج مخنوقاً من فرط الغيظ:

- أقسم بالله يا نصيف لو حلال القتل، كان زماني قتلتك وخلصت، بس وشرف أختي لأقتلها هي لو ملقتش شريف، والمنطقة دي كلها مش هتقوم لها قومة لو صاحبي جرا له حاجة!

تركته يرتجف خلف الباب وركضتُ نحو السيارة، لم يعد أمامي خيار سوى العودة لنقطة الصفر، إلى جميلة ونعم.

رجعتُ مرة أخرى إلى المشفى، كنتُ أجُرُّ أقدامي جرّاً، والظلام يلفُّ عقلي من كل جانب، وبمجرد دخولي من باب الممر، قابلني الطبيب ووجهه يحمل بشارة قطعت حبل أفكارى السوداء، وألقى في وجهي خبراً كان بمثابة النور في عتمة هذه الظلمة:

- أهلاً يا أستاذ تيمور، كنت لسه هدور عليك، عايز أقولك إن الأنسة جميلة فاقت، وأول ما فتحت عينيها بدأت تنادي باسمك.

شعرتُ بقلبي يخفق بشدة، وكأنّ الروح رُدّت إليّ من جديد، اندفعتُ نحو غرفتها، متناسياً كل تعبى، كل همومي، وحتى لغز اختفاء شريف لثوانٍ، جميلة هي الخيط الوحيد الباقي، وهي الصدر الحنون الذي سأرمي فيه أوجاعي، قبل أن أبدأ رحلة البحث عن شريف.

فتحتُ الباب ببطء، فوجدتُ نغم واقفة بجانب السرير والدموع
تلمع في عينيها من الفرح، وجميلة تحاول تحريك رأسها بثقل،
وهي تهمس بصوتٍ واهن:

- تيمور.. تيمور أنت فين؟

اقتربتُ منها بخطواتٍ مُهتزة، وشعرتُ بأن الجبال التي كانت
تجثم فوق صدري بدأت تنهار بمجرد أن التقت عيناها بعينيها،
أمسكتُ يدها الباردة وضممتها بين كفي بقوة، وكأنني أحاول ضحّ
الحياة في عروقها من جديد، وهمستُ بنبرةٍ يملؤها الحنان:

- أنا موجود يا قلب تيمور، اطمّني يا جميلة، أنا جنبك ومش
هسيبك لحظة ثانية خالص.

بدأت تفتح عينيها ببطء شديد، وكأنّ الضوء يؤلم جفونها الرقيقة،
نظرت حولها بتوهان واستغراب، ثم خرج صوتها وهنًا ومُرتعشًا
كأنه آتٍ من بعيد:

- تيمور، هو أنا فين؟ وإيه الأجهزة دي كلها؟

بلعتُ ريقِي بصعوبة، وأنا أحاول رسم ابتسامة هادئة فوق
ملامي المُرهقة، كي لا أبثّ الرعب في قلبها:

- أنتِ في المستشفى يا حبيبتي، حصلت لخبطة بسيطة كده وأنتِ
كنتِ نائمة شوية، بس الحمد لله قومتِ بالسلامة ونورتِ الدنيا
كلها من تاني.

سكنت لحظة، وكأنها تُحاول استجماع شتات ذاكرتها المُبعثرة،
وفجأة تبدّلت ملامحها، وارتسم الخوف فوق وجهها الشاحب،
فقبضت على يدي بأظافرها وهي تهمس بفزع:

- تيمور، أنا مش عايزة سميح، أرجوك.

انحنيتُ على رأس جميلة وقبّلتُ جبينها، في محاولةٍ لِبَثِ
الطمأنينة في أوصالها، وقُلْتُ بصوتٍ خفيضٍ يملؤه اليقين:

- خلاص يا حبيبتي، اهدي خالص، هو مات، مفيش حد هيقدر
يقربلك تاني طول ما أنا فيَّ نَفْس.

رأيتُ ملامح الفرحة تُشرق على وجهها أخيراً، وكأنَّ غَمَّةً
انزاحت عن صدرها، فسألتني بلهفة:

- طب أنا همشي إمتى من هنا؟ مش طابقة ريحة المستشفى دي.

التفتُ نحو نغم، ووجّهتُ حديثي إليها بلهجةٍ أمرّة وحازمة:

- نغم، خلّصي إجراءات الخروج فوراً، وأوّل ما تخلصوا رنّي
عليّ، هكون خلّصت مشوار سريع كدة وجيت أخدمكم.

سألتني نغم باستغراب وهي تلتفت حولها:

- تمام، بس فين شريف؟ مخنفي فين من ساعة ما جيتوا؟

أجبتها باقتضاب وأنا أتّجه نحو الباب بخُطى واسعة:

- ما هو ده مشواري يا نغم، ادعي نلاقيه بس.

وصلتُ أمام القصر مرة أخرى، ذلك البناء الذي تفوح منه رائحة المؤامرات، طرقتُ الباب عدّة طرقاتٍ عنيفةٍ كادت تخلع الأركان، وبعد فترةٍ فتحت لي سُحور، كانت تطلُّ بكامل أنفقتها المُستفزة، ترتدي ثوبًا من الحرير القرمزي، يلتصق بجسدها كجلد الأفعى، يبرز مفاتها بجرأةٍ لا تليق بوقار المكان، وشعرها الأشقر مُسدل على كتفيها بعنايةٍ فائقة، وعطرها الفرنسي النّفاذ يملأ الرّدهة، نظرت إليّ باستغرابٍ ممزوجٍ بالتعالي وقالت:

- خير يا تيمور باشا؟ إيه الزيارة المفاجئة دي؟

لم أمنحها فرصةً للتمثيل، ودخلتُ بخطواتٍ ثابتة وأنا أضيّق عياني:

- هو من ناحية الخير، فهو مش خير ليك خالص، ليك علاقة بتمارا صح؟

رفعت حاجبيها ببراءةٍ مُصطنعةٍ وأجابت:

- تمارا! تمارا مين دي؟ أنا معرفش حد بالاسم ده يا سيادة النقيب.

ضحكتُ بسخريةٍ مريرة، ضحكةً هزّت أرجاء المكان:

- هههه، يا بت بلاش تمثيل، مش عارفة تمارا مين؟ خَلينا نحلّها ودّي أحسنلك، عشان والله العظيم لو ما عرفت مكانها، أو عرفت مكان شريف اللي اتخطف، هبيّتك في بورش VIP، ها إيه رأيك؟

نظرت إليّ بتحدٍ وقالت بلهجتها الأجنبية المعتادة:

- You're a crazy man, right! (أنت رجل مجنون، أليس كذلك!)

اقتربتُ منها حتى شعرتُ بأنفاسها المُتسارعة، وفُلتُ بصوتٍ
كفحيح الأفاعي:

- لسه مشوفتيش الجنون على فكرة، بس لو حابّة ممكن أوريهولك
دلوقتي حالاً.

ابتسمت بتحدٍ وقالت:

- وأنا عايزة أشوفه، ورّيني يا تيمور.

أجبتها ببرودٍ قاتل:

- عيوني.

وفي لحظةٍ بصر، وبحركةٍ احترافيةٍ مُباغتة، استدرتُ خلفها،
وضغطتُ بمؤخرةٍ سلاحِي (الدبشك) على مؤخرة رأسها بقوةٍ
مدروسة، لم تنطق بكلمة، بل تهاوى جسدها الممشوق في لحظةٍ
واحدة، لتقع مغشياً عليها بين أحضانِي.

تأملتُ جسد سُحور المُلقى بين يديّ للحظات، كانت أنفاسها
منتظمة وهادئة بشكلٍ لا يتناسب مع الفوضى التي أحدثتها في
حياتها للتو، لم يكن لديّ وقتٌ للندم أو التردد، فكل ثانية تمرُّ هي
مسمارٌ جديد يُدقُّ في نعش شريف.

حملتها بين ذراعيّ بخفةٍ غريبة، وخرجتُ بها من باب القصر
الخلفي بعيداً عن أعين الحرس، وضعتها في المقعد الخلفي
لسيارتي، وغطيتها بمعطفي الميري وكأنني أخفي جريمةً لا
تُغفر، انطلقتُ بالسيارة ولم يكن وجهتي المشفى ولا القسم، بل
وجهتي كانت المدافن

وصلنا إلى مدافن عائلة الشاذلي في أطراف القاهرة، حيث الصمت يسود ولا يكسره سوى عواء الكلاب الضالة، نزلتُ وسحبْتُ سُحور خلفي، أدخلتها إلى المندرة المُلحقة بمقبرة أبي، نعم.. المكان الذي لم يجرؤ أحدٌ على دخوله منذ سنوات.

فتحتُ عينيها برشّات مياهٍ باردة، لتتنفّض سُحور وهي تصرخ وتنظر حولي بدُعر:

- أنا فين؟ إيه المكان المُقرف ده؟ تيمور أنت اتجنّنت؟

جلستُ أمامها على مقعدٍ خشبي مُتهالك، وأنا أنظّف سلاحي ببرودٍ يُثير الرُّعب:

- المكان ده يا قطة هو بيت الحقيقة، هنا مفيش كذب، مفيش بريستيج، ومفيش تمارا تحميك، أنتِ دلوقتي في ضيافة الموتى، وأبويا لسه مدفون بقاله فترة ومحتاج ونس.

بدأت سُحور ترتجف، ونبرة صوتها الأجنبية تلاشت، ليحلّ محلّها رعبٌ مصريّ أصيل:

- تيمور، والله ما أعرف مكان شريف فين، أنا بس كنت وسيطة، تمارا هي اللي كانت بتخطط لكل حاجة.

اقتربتُ منها حتى تلاقت أنظارنا، وفُلتُ بصوتٍ منخفض:

- وسيطة؟ يعني عارفة الرسول اللي بياخد الأوامر! قوليلي يا سُحور، مين اللي دبح أبويا؟ ومين اللي خطف شريف؟ لو منطقتيش دلوقتي، هقفل عليكِ باب التربة دي وأسيبك تدردشي مع أبويا لحد الصبح، تفتكري هيقولك إيه؟

انهارت سُحور تمامًا، وبدأت الكلمات تخرج من بين شهقاتها
المُتقطّعة كأنها تعترف بذنوب عمرها كله:

- تمارا.. تمارا ليها مخزن قديم في منطقة الملاحات، هناك
شريف، وهناك كل حاجة.

نظرتُ إليها بعيونٍ صقريّة لا تعرف الرحمة، وقلْتُ بجفاء:

- طب قومي يا حب، أنتِ هتيجي معايا دلوقتي حالًا، وتدليّني
على المكان خطوة بخطوة.

اعتدلت في جلستها، وهي تحاول استعادة جزء من كبريائها
الجريح:

- موافقة بس بشرط، تسيبني أمشي بعد ما نوصل.

ضحكتُ بسخرية وأنا أسحبها من ذراعها لتنهض:

- محدش بيملي عليّا شروط يا سُحور، أنتِ هنا مُتّهمة مش ضيفة
شرف.

توقّفت مكانها وقالت بتحدٍّ يائس:

- يبقى انسى إن أنا أقوم من مكاني ده، واحبسني هنا لو عايز.

اقتربتُ منها حتى شعرتُ بحرارة غضبي، وهمستُ في أذنها:

- ويبقى تنسي كمان إنك تخرجي من المكان ده حيّة، المدافن
واسعة يا سُحور، والتربة اللي جنبك دي لسه فيها مكان فاضي،
تحبي تجرّبي؟

ابتلعت ريقها برُعب، وانطفأت شرارة التحدي في عينيها فوراً:
- خلاص.. خلاص، بلا بينا.

انطلقتُ بالسيارة كالسهم نحو العنوان الذي أرشدتني إليه، وسط
طريقٍ صحراويٍ مُوحش، لا يقطعه سوى ضوء الكشافات، وبعد
نصف ساعة من القيادة المتواصلة، رنّ هاتفي برقم نغم، فتحت
الخط وأنا أحاول كتمان أنفاسي المُتسارعة:

- أيوة يا نغم، في إيه؟

جاءني صوتها قَلْبًا، مشحونًا بعتابٍ مكتوم:

- أنت فين يا تيمور؟ أنا وجميلة خُصنا إجراءات الخروج
ومستينك قدام المستشفى بقالنا كتير.

- نغم.. معلش روحوا انتوا البيت دلوقتي، واقعدوا هناك لحد ما
أخلص مشواري ده وأجيلكم.

ردّت بنبرة حادّة بدأت تفقد صبرها:

- تيمور، مشوار إيه ده اللي أهم من أختك؟ أنا بجد حاسّة إن
الفترة اللي غبتها دي ضاعت عليّ حاجات كتير أوي، أنت مخبي
إيه؟

- نغم! مش وقتك خالص والله، هخلص وأكلمك، اقفلي دلوقتي.

أغلقْتُ الهاتف في وجهها قبل أن تُجيب وزفرتُ بضيق، هنا
تحنّحت سُحور وهي تحاول تعديل وضعيّة يديها المربوطة
بجانبي، وقالت بخبثٍ أنثوي:

- هي مين نغم دي يا سيادة النقيب؟

نظرتُ إليها بطرف عيني، وقُلْتُ بحدّة:

- وأنتِ يخصّك في إيه؟ ركّزي في الطريق وبس.

لوت شفاهها بابتسامة صفراء وقالت:

- أصل أنا فكّرتك محترم بزيادة ومش بتكلّم بنات، طلعت زيّ
بقية الرجالة عادي يعني.

ضربتُ مقود السيارة بقبضة يدي صائحًا فيها:

- أنا محترم فعلاً، وغصب عنك وعن اللي يتشدّدك! ونغم دي
تبقى أختي، يعني لسانك ده ميتنطقش باسمها خالص، فاهمة؟

هزّت رأسها بلامبالاة مُصطنعة وهي تهمس:

- أممم أختك، ماشي يا سيدي، حقك عليّا.

توقّفت السيارة أخيراً وسط سكون الملاحات القاتل، حيث أكوام
الملح الأبيض تلمع تحت ضوء القمر كأنها تلال من الثلج،
ورائحة اليود تخنق الأنفاس، كان المخزن القديم يقبع في نهاية
الطريق، بناء مُتهالك بجدران مُتشقّقة، وأبواب حديدية صدئة،
تصدر صريراً مع كل نسمة هواء.

نزلتُ من السيارة وسحبْتُ سُحور خلفي، وهي تتعَثَّر في خطواتها وتهمس برُّعب:

- تيمور، بلاش ندخل من الباب العمومي، تمارا أكيد حاطة حد يراقب.

نظرتُ إليها بشكِّ، وسألتها بصوتٍ منخفض:

- وفيه طريق ثاني؟ ولا أنتِ ناوية تغدري بيّا وتدخّليني في فخ؟

أجابت وهي ترتجف، ونظراتها مُعلّقة بالمبنى:

- والله ما بغدر بيك، فيه فتحة تهوية من ورا، كانت بتستخدمها زمان لما تحب تدخّل حاجة من غير ما حد يحس.

تحرّكتُ بخذر، وسلاحي الميري في يدي، أتحمّس خطواتي فوق الأرض الملحّية، التي كانت تصدر صوتاً تحت حذائي كتخطّم العظام، وصلنا إلى الخلف، وجدتُ فتحةً ضيّقةً مُغطّاة بشبكة حديدية مُهترئة، نزعتها بهدوء ودخلتُ أولاً ثم سحبْتُ سُحور خلفي، لنجد أنفسنا في ممرٍ مُظلم تفوح منه رائحة الرطوبة والغفن.

مشينا بخُطى وئيدة حتى وصلنا إلى ساحة المخزن الكبرى، وهناك توقّف قلبي عن الخفقان للحظة..

كان شريف مُعلّقاً من يديه بجنازير حديدية في سقف المخزن، رأسه متدلّية لأسفل، وقميصه الأبيض مُلطّخ بالدماء بشكلٍ يمزّق الروح، لم أتمالك نفسي، كِدْتُ أركض نحوه وأنا أصرخ باسمه، لكن يداً باردة وُضعت فوق كتفي، وصوتاً أنثوياً أعرّفه جيداً همس في أذني ببرودٍ قاتل:

- تَوُتْ.. تيمور الشاذلي بنفسه في ضيافتي؟ نَوُرت الملاحظات يا سيادة النقيب.

التفتُ بسرعة لأجد تمارا تقف خلفي، وبجانبتها ذلك الرجل الضخم الذي رأيته في الفندق، وهو يصوّب سلاحه نحو رأس شريف مباشرة، قُلْتُ بصوتٍ يرتجف غضبًا:

- تمارا.. سيبي شريف، الحساب بيني وبينك أنتِ، هو ملوش ذنب!

ضحكت بسخرية وهي تقترب مني، وعيناها تلمعان ببريق شيطاني:

- ملوش ذنب؟ ده هو التّحلية يا تيمور، وبعدين أنت اللي بدأت، لما روحت لنصيف وسُحور، وفتّشت في دفاتر قديمة مكنش لازم تتفتح، شريف دلوقتي هو التّمن اللي هتدفعه عشان فضولك.

نظرتُ لشريف رأيته يفتح عينيه بصعوبة، وحين وقعت عيناه عليّ، حاول الابتسام رغم الألم، وقال بصوتٍ مبحوح:

- تيمور.. اهرب، ملكش دعوة بيّا، أنا كده كده مليش حد يزعل عليّا، بس خلّي بالك من أمي يا تيمور، أمانة في رقبتك يا صاحبي.

انفجرت الدماء في عروقي، وصرختُ فيه بصوتٍ زلزل أركان المخزن الصّديّة، والدموع تحرق عيني:

- اخرس يلا، مسمعش صوتك ده خالص، متموتش دلوقتي وتعملي فيها بطل، مش هطلع من هنا غير بيك يا شريف، يا نطلع سوا يا نندفن في الملح ده سوا!

ضحكت تمارا ضحكةً باردة كصوت تحطّم الزجاج، وداعبت
زناد سلاحها بخفة وهي تنتظر إلينا ببرودها المعهود:

- يا عيني، مشهد مؤثّر أوي، الأخوة في الدم.. بس للأسف يا
تيمور، الوقت مبيستناش حد، والملاحات بدأت العد التنازلي،
قدامك دقيقتين بالظبط تنقذ نفسك وصحبك، مقابل إنك تنسى قضيه
الست مديحة دي خالص.

نظرتُ إليها بغلٍ لم أشعر به قط، وقُلْتُ وأنا أتحرك ببطء نحو
الجنازير:

- يعني أنتِ اللي قتلتي مديحة؟ دا أنا لو خرجت من هنا حي
هدفك.

في تلك اللحظة، تحرك الرجل الضخم الذي كان يقف بجوارها،
ووجه ضربةً مباغتةً بمؤخرة سلاحه نحو رأس شريف ليغيب
عن الوعي تمامًا، فصرختُ بجنون وأنا أندفع نحوهما، لكن تمارا
أطلقت رصاصةً في الهواء أوقفتني مكاني:

- اثبت مكانك يا سيادة النقيب، أنا لسه مخلصتش كلامي، سُحور!
التفتُ لأجد سُحور تقف خلفي، لكن ملامحها لم تكن خائفة هذه
المرة، بل كانت تحمل ابتسامةً غامضة وهي تسير نحو تمارا
وتقف بجانبها:

- برافو يا تيمور، كنت شاطر أوي وأنت فاكِر إنك خاطفني، بس
الحقيقة إننا اللي سحبناك لحد هنا برجلك.

تراجعتُ خطوة للخلف وأنا أدرك فداحة الفخ الذي سقطتُ فيه،
سُحور لم تكن مجرد وسيطة، كانت الطعم الذي ابتلعته بكامل
إرادتي، صرختُ فيهم واليأس بدأ يتسرّب إلى روحي:

- يعني كل ده كان تمثيل؟ مقتل أبويا، خطف شريف، كلامك في
المدافن؟

أجابت تمارا وهي تُخرج جهاز تحكّم صغير من جيبها:

- مقتل أبوك كان حقيقي، بس أنت اللي لبست التهمة بغباءك،
ودلوقتي يا تيمور هتتفرّج على صاحبك وهو بيطير في الهواء،
وأنت المتهم الوحيد في قتله وقتل أبوك!

وقفتُ بصلايةٍ في منتصف ساحة المخزن، وعيوني تشتعل
بنيرانٍ لم تخدم، وقلْتُ بنبرةٍ حادةٍ قطعت سخرية تمارا:

- طب أنا عايز أخرج من هنا بصاحبي، وأحسنلكم متختبروش
صبري أكثر من كده.

تقدّم الرجل الضخم نحوي بلامحه الغليظة، وتحدّث بصوتِه الذي
يُشبه هدير المُحرّكات:

- ونسمع كلامك ليه يا روح أمك؟ أنت فاكِر نفسك مين؟

صرختُ فيه وأنا أستحضر كل جبروت عائلة الشاذلي في
حنجرتي:

- كنت تيمور الشاذلي، اللي مبيسيش حقه ولا حق رجّالته لو
انطبقت السما على الأرض!

وفور نطقي لهذه الكلمات، سحبْتُ سلاحي الميري في لمح
البصر، وأفرغتُ عدّة طلقاتٍ عشوائية في الهواء، صممت معها
الأنفاس وتردّد صداها في أركان المخزن الحديدية:

- هاخذ شريف وامشي، بس اللي عمل حاجة لآخرته يجرب يقف
في طريقي.

ورغم أزيز الرصاص، كانت ملامح البرود لا تزال ترتسم على
وجه تمارا كأنها تمثالٌ من الثلج، ممّا أشعل الغضب في عروقي
أكثر، اقتربت مني بخطواتٍ واثقة وقالت بهدوءٍ مُستفز:

- بمزاجي يا تيمور، هتمشي بمزاجي أنا، متفكرش إن بشوية
الرصاص دول هخاف! المرة دي إنذار عشان تعرف مقامك، بس
المرة الجاية دبج، ولو خايف على جميلة، خرّج نفسك من قضية
مديحة يا تيمور، وبلاش تفتح أبواب جحيم أنت مش قدّها.

أشارت بيديها لرجالها ببرودٍ قاتل، وفي ثوانٍ معدودة، تبخّر
الجميع من المكان وكأنهم أشباح، تاركين خلفهم رائحة الملح
والبارود، اندفعتُ نحو شريف كالمجنون، وبدأتُ أفكّ تلك
الجنازير اللعينة عن جسده المُنهك، وأنا أهمس باسمه بخوف.

سقط شريف في أحضاني، فبدأتُ أحاول إفاقته بضرباتٍ خفيفة
على وجهه، وبعد دقائق من الرُّعب، فتح عينيه أخيرًا ونظر إليّ
بتعب، وهمس بصوتٍ مُرتعش:

- تيمور، أنت.. أنت كويس؟

سندتُ رأس شريف على صدري، وأنا أتحسّس نبضه الذي عاد
يقرع بانتظامٍ خفيف، وفُلتُ بنبرةٍ يملؤها الارتياح والامتنان:

- أنا كويس يا حبيبي المهم أنت، أنت حاسس بإيه؟ طمّني عليك
يا شريف.

رغم الأوجاع التي كانت تنهش جسده، ورغم الدماء التي تلتّخ
وجهه، إلّا أن لسانه لم يمت قط، فتح عينيه بنصف إغفاءة ونظر
إليّ بضيقٍ مُصطنع:

- حبيبك إيه يا تيمور؟ أنت بقيت شاذ من إمتى يا حضرة الطابط؟
هو الملح لحس مخك ولا إيه!

ضحكتُ غصباً عني، ضحكةً خرجت من وسط الرّكام والهموم،
وهزرتُ رأسي بيأس:

- تصدّق إنّ حلال فيك اللي عملوه فيك ده؟ ده أنا كنت لسه هعيط
وأعمل فيها مشهد سينمائي، بس أنت واطي ومبتجيش غير بالعين
الحمرا.

حاول شريف التحرك بصعوبة لكن قواه خائنته، فأغمض عينيه
وقال بنبرةٍ أمرة مُستفزة:

- طب بقولك إيه، سيبك من المُحن ده، ويلا شيلني عشان مش
قادر أقف على رجلي.

تراجعتُ خطوة للخلف، وأنا أنظر إلى طوله وعرضه بذهول:

- أشيلك!

- آه شيلني، أنت مش أخويا وصاحبى؟ شيلني بقا ووريني مهاراتك القتالية.

- لا معلش، أشيلك إزاي وأنت زيّ البغل كده؟ ده أنت محتاج ونش من مصلحة الطرق والكباري عشان يرفعك من الأرض.

تحامل شريف على ذراعي وهو يئن، وسننّه بكل ما أوتيت من قوة حتى أخرجته من ذلك المخزن الملعون، رائحة الفجر كانت قد بدأت تتسلّل إلى أنوفنا، والهواء البارد المنعش غسل وجوهنا من غبار الموت.

أدخلته السيارة بصعوبة، وجلسْتُ خلف المقود وأنا أتنهّد بعُمق، ثم نظرتُ إليه بجديّة فاجأته:

- شريف، تمارا قالتلي خرج نفسك من قضية مديحة، أعملها إزاي دي؟

عدّل شريف وضعيّة رأسه وهو يُغمض عينيه بتعب، وقال بصوتٍ منخفض ولكن حاد:

- تمارا بتخاف يا تيمور، بس الأهم من ده كله إننا عرفنا إنها هي اللي قتلت مديحة بدم بارد.

زفرتُ بضيق وأنا أضغط على عجلة القيادة بيدٍ واحدة:

- بس معندناش دليل يا شريف، السّت دي ذكيّة ومبتسيش وراها فتفوتة تمسكها عليها، والقانون مبيحميش المغفلين اللي زيّنا.

أغمض شريف عينيه بتعب، وقال بنبرةٍ مُستعطفة:

- روّحني بس يا قلب أخوك، أنا مش قادر أتكلم ولا أفتح عيني،
خلّي عند أهلك دم النهاردة.

ضحكتُ بسخرية وأنا أنظر إلى وجهه المتورّم:

- حاضر يا زفت، قربنا نوصل أهو، استحمل الشّوية دول.

وبعد ساعاتٍ من التعب والمُراوغة، وصلنا أخيرًا إلى بنايتي
العتيقة في حي السيدة زينب، نزلت من السيارة وأنا أسند شريف
الذي بدا وكأنه جثةٌ هامدة تتحرّك بصعوبة، ونظرْتُ نحو مدخل
العمارة بشك:

- شريف، تتوقّع صلّحوا الأسانسير؟ أصل أنا مش هقدر أشيلك
الشيلة دي كلها لحد الدور التاسع، صحّتي على قدي يا زميلي.

فتح شريف عين واحدة، ونظر إليّ بتهكّم وهو ينهج:

- أنت عايز تقنعني إنّ عمي ساجد المايّح ممكن يحط أسانسير
بجد في عمارته؟ ده لو دفع خمسين ألف جنيه في مكنة أسانسير
ممكن يجيله شلل رعّاش، ده بيستخسر يغيّر اللبّة اللي محروقة
في المدخل!

بدأنا رحلة الصعود الشّاقة، ومع وصولنا للدور الثالث، شعرتُ
بأن قواي بدأت تخور تمامًا، جسد شريف الضخم كان يضغط
على عظامي، فهو أطول مني وأعرض بكتفين كأنهما دلفتيّ باب!

- شريف، أنا حاسس إنني هقع، رجلي مش شايلاني!

وفور نطقي لهذه الكلمات، خانتني قدماي، وتعثّرتُ في طرف
السلم لأهوي ساجداً، وسقط فوقي شريف بكل جبروته وثقله، كان
وضعنا يُوحى بكل شيء غلط في الدنيا، أنا مدفون تحت جبل من
اللحم والعضلات، وعظامي تصرخ تحت وطأة هذا البغل
البشري.

صرختُ بصوتٍ مخنوق من تحت جسده:

- شريف.. قوم يا بغل بموت، رُوحى بتطلع تحتك.

ردّ عليّ بصوتٍ يائس وهو لا يتحرّك:

- ما أنا لو قادر أقوم كنت قومت وحياتك، استنى بقا لما أيّ حد
يطلع يلمّنا من الأرض.

- حد يطلع يشوفنا بالمنظر ده؟ ده اللي هيشوفنا هيبصّلنا بقرف
ويتف في وشنا، ويفتكرنا أشكال ضالة، أنت مش شايف إحنا
نايمين فوق بعض إزاي!

وكان القدر أراد أن يُتَمَّ الكسفة، فُتِح باب الشقة المجاور لنا،
وخرجت سيدة في الخمسين من عمرها، ترتدي إسدال الصلاة
وتستعد للخروج، وفور وقوع عينيها على منظرنا العجيب،
اتّسعت عيناها بصدمةٍ بالغة، وضربت بيديها على صدرها:

- يا مصيبتى! أستغفر الله العظيم، هي الأشكال دي إيه اللي جابها
هنا؟ يا فتّاح يا عليم على الصبح!

حاولتُ الحديث بصوتي الذي كاد يختفي تحت ثقل شريف:

- يا ولية أنتِ فاهمة غلط، ده صاحبي ومُصاب، قوم يا بغل فضحتنا!

جمعتُ كل قوّتي ودفعْتُ شريف بعيدًا عني فجأةً، ليتدحرج جانبًا وهو يتلَوّى من الألم ويُطلق آهاتٍ مكتومة، بينما وقفتُ أنا وأنا أحاول لملمة كرامتي المُبعثرة أمام نظرات الجارة المذعورة.

بعد خمس دقائق من الصراع المرير مع درجات السّلم، وقفتُ أخيرًا أمام باب شقّتي وأنا أستند بجسدي المُنهك على الجدار، بينما كان شريف يُلقي بكامل ثقله فوق ظهري، وكأنه يحاول اختباري في رياضة رفع الأثقال، طرقتُ الباب بقدمي لعدم تفرّغ يديّ، وفُتح الباب لتطلّ منه نغم بلامحها القلقة، التي تحوّلت في لمح البصر إلى صدمة مروّعة غطّت وجهها بالكامل.

شهقت نغم ووضعت يدها على فمها، وصاحت بصوتٍ مخنوق:

- يا مصيبتني، شريف! مين اللي بهدلك وعمل فيك كده؟ ده وشك ملوش ملامح، يا ساتر.

حاول شريف أن يبتسم، لكن جرح شقّته خانه، فقال بصوتٍ مبجوح يملؤه التعب والسخرية من حاله:

- أبدًا يا نغم، علقة موت بس، بس المرة دي كانت موت بجد مش مجرد تعبير مجازي.

تَنَحَّتْ نغم جانبًا وهي تفسح لنا الطريق، وقالت بلهفة وخوف
وهي تحاول مساعدتي في سنده:

- طب ادخلوا، ادخل يا تيمور، سنده عليًا.

دخلنا إلى الصالة، وأرخينا أجسادنا فوق الأريكة القديمة، كانت
جميلة جالسة هناك، وعيناها تلمعان بدموع مكتومة وهي تنظر
إلينا بصمت، وكأنها ترى في جراحنا ثمن نجاتها هي.

جلستُ على الأرض من فرط التعب، ونظرتُ لنغم وقُلْتُ وأنا
ألهث:

- نغم، هاتي شنطة الإسعافات بسرعة، شريف جروحه بدأت
تفتح، ومحتاجين نظهر الكلام ده قبل ما يلتهب.

تحركت نغم كالنحلة، أحضرت القطن والمطهر، وبدأتُ أنا
وشريف في تبادل الأدوار، أنا أطهر جروحه وهو يصرخ من
الألم، ويشتم في تمارا ورجالها، وفي وسط الوجع، مالت جميلة
عليَّ وهمست بصوتٍ خافت:

- تيمور، هي مين تمارا دي؟

أمسكتُ يدها وضغطتُ عليها برفق، وقُلْتُ وعيني في عيناها:

- لا يا حبيبي دي واحدة مُشتبه فيها في القضية اللي أنا فيها.

وفجأة، قطع حديثي أنا وجميلة العائلي صوت شريف وهو يتأوه
بقوة:

- يا عم روميو، سيب إيد البت وركّز في الجرح اللي بيخر دم في
كتفي ده، أنا هنا بتمزع وأنت بتوزع مشاعر ونظرات!

ضحكت نغم غصبًا عنها وهي تمسح دموعها، وقالت وهي
تضرب شريف بخفة على كتفه السليم:

- أنت مفيش فايدة فيك، حتى وأنت مدغدغ لسانك طويل!

تسلّلت من الشقة بخطواتٍ خفيفة كاللصوص، تاركًا خلفي رائحة
المطهّرات وأنين شريف المكتوم في نومه، لم أكن أقوى على
النطق بكلمة واحدة لأحد، فالحقيقة التي عرفتُها اليوم أثقل من أن
يحملها عقلي، فكيف بقلب نغم أو هشاشة جميلة؟

فُدتُ سيّارتي بلا وجهة مُحدّدة، حتى وجدتُ نفسي أمام البحر،
نزلت وشعرت ببرودة الليل التي كانت تلسع وجهي كالسّيّاط،
وقفتُ هناك واستندتُ بكلتا يداي على سور الكورنيش الحجري
القديم، ونظرتُ إلى سواد الأمواج الذي لا ينتهي.

أخرجتُ علبة سجائري بيدي المُرتعشة قليلًا، أشعلتُ واحدة،
وسحبْتُ منها نَفَسًا طويلًا، كِدْتُ أشعر بمذاق قطرانها يختلط
برائحة الملح واليود في صدري، كنتُ أبدو في تلك اللحظة كبقايا
رجل، ثيابي مُجعّدة ومُلطّخة بآثار غبار المَلّاحات، وجهي شاحب
تحت ضوء أعمدة الإنارة الصفراء، وعيناوي غائرتان يملؤهما
سهر القلق وحيرة الأسئلة.

نفثتُ الدخان ببطء وأنا أراقب تلاشيهِ في الهواء، وقُلْتُ لنفسي
بمرارة:

- وبعدين يا تيمور؟ تمارا لعبت ببيك الكورة، وشريف كان
هيروح فيها بسببي، ودلوقتي مبقتش عارف أطلع من القضية
وأحمي عيلتي؟ ولا أكمل وأجيب حق السّت اللي ماتت دي؟

كان شكلي يُوحى بالهزيمة، لكن مَنْ يقترب من عيني سيري
جمراتٍ من الغضب لم تنطفئ بعد، كنتُ أشبه بالبحر أمامي،
هدوءٌ خادع على السطح، بينما في الأعماق صراعٌ واضطرابٌ
يبتلع كل شيء، لم تكن مجرد سيجارة، كانت محاولة يائسة
لترتيب شتات نفسي قبل أن تُشرق شمس يومٍ جديد، أعرف جيدًا
أنه لن يكون أرحم مما سبقه.

رميثُ عُقب السيجارة تحت قدمي وهرسته بحدّة، وكأني أهرس
وجه ذلك الرجل الضخم أو برود تمارا، التفّتُ نحو السيارة،
وكان قراري قد حُسم، لن أنتظر للصباح، سوف أذهب للقصر
مرة أخرى.

مضت ساعاتُ الليل بطيئةً كأنها دهر، ولم تُشرق شمس يوم
الأربعاء إلّا وأنا أقف للمرة الثانية أمام ذلك القصر الذي صار
كاللغز اللعين، طرقتُ الباب بعنفٍ أكبر هذه المرة، وبعد قليل
فتحت لي الخادمة بملامحها الجامدة التي لم تتغيّر، سألتها بلهجةٍ
حادّة وأنا أحاول تجاوزها بنظراتي للداخل:

- أستاذة سُحور موجودة؟ أو الأستاذ جوزها؟

نظرت إليّ ببرودٍ لا يقل عن برود تمارا، وأجابتنِي بتلك اللغة
الإسبانية المُستفزة:

No, se fueron hace tiempo -

(لا، غادروا منذ فترة طويلة).

لم أستسلم، وحاولتُ استعراض ما تبقى من لغتي لأعرف وجهتهم:

Adónde fueron o cuándo volverán -

(إلى أين ذهبوا؟ أو متى سيعودون؟).

هزّت رأسها بكلمة واحدة قاطعة كحدّ السيف:

No lo sé -

(لا أعرف).

ثم أغلقت الباب في وجهي بقوة، دون أن تمنحني فرصة لسؤال آخر أو حتى اعتراض، وقفتُ مكاني أشعر بغليانٍ في رأسي، لكن قطع حبل تفكيري رنين هاتفي، كانت جميلة، فتحتُ الخط وأنا أحاول السيطرة على نبرة صوتي:

- أيوة يا جميلة، في إيه؟

- تيمور أنت فين؟ نمت وصحيت ولسه مرجعتش يا حبيبي!

- في مشوار كده يا جميلة، مشوار لازم يخلص.

سألتني بنبرة يملؤها القلق الذي يُحاصرني دائماً:

- طب هترجع إمتى؟ إحنا خايفين هنا لوحدا.

أجبتها بصرامةٍ لم أعدها معها من قبل:

- هرجع قريب، بس المهم دلوقتي تفضلني في الأوضة أنتِ ونغم، وتقفلوا الباب عليكم بالمفتاح، ومحدث يخرج لأي سبب، عشان شريف.

صمتت للحظة، ثم قالت بنبرة مُعترضة وعتابٍ واضح:

- ده شريف أخونا يا تيمور، إيه اللي بتقوله ده؟ بطل كلامك ده، ده شريف بيموت فينا!

ضغطت على أسناني وأنا أشعر بمرارة الحقيقة التي لا يعرفونها، وصحت فيها بحسم أنهى النقاش:

- اسمه شريف الجارحي مش شريف الشاذلي، يلا سلام، والكلام يتسمع بالحرف الواحد!

أغلقت الهاتف قبل أن أسمع ردّها، وركبت سيّارتي وأنا أضرب المقود بقبضة يدي، العالم كله أصبح في نظري أعداء، وحتى أقرب الناس لي، لم أعد أثق إلا في صمتي.

عاد تيمور إلى منزله بجسدٍ ينّ من التعب، وعقلٍ لا يتوقف عن الدوران كتروس طاحونة صدئة، دخل غرفته، تلك الغرفة التي شهدت على صراعاته وخططه، وأغلق الباب خلفه بهدوءٍ مُبالغ فيه، كأنّه يخشى أن يتسرّب ما يدور في رأسه إلى الخارج، جلس على حافة سريرهِ، ونظر إلى ملف القضية المفتوح أمامه: صور مديحة، خريطة الملاحات، واسم تمارا الذي أصبح كالكابوس.

كل الخيوط مُتشابكة، وكلّما أمسك بطرف خيط انقطع، أو قاده إلى متاهة جديدة، تمدّد بظهره وأسند رأسه إلى الخلف، مُغمضاً عينيه، محاولاً ترتيب الفوضى، لكن صمت الغرفة قطعهُ رنين هاتفه، كان المتصل هو اللواء عصام، زفر تيمور بضيق وضغط على زر الرّد:

- تمام يا فندم، مع حضرتك.

جاءه صوت اللواء عصام عميقًا ورزينًا، لكنه يحمل نبرة من اللوم ونفاد الصبر:

- تيمور أنا بتابع التقارير والوضع مبيطمّنش، القضية طوّلت أوي يا تيمور، طوّلت زيادة عن اللزوم، وإحنا تحت ضغط من فوق.

اعتدل تيمور في جلسته، وأشعل سيجارة جديدة وهو يرد بهدوء حذر:

- يا فندم الخِصم المرة دي مش سهل، تمارا مش مجرّد تاجرة، دي شبكة وليها مخالب في كل مكان، أنا وصلت لمخزن المّلاحات، وشريف كان هيروح فيها، الموضوع أكبر من مجرد جريمة قتل مديحة.

ردّ اللواء عصام بنبرة أكثر حدّة:

- أنا مقدّر مجهودك، ومقدّر إنك بتخاطر، بس النتائج فين؟ لحد دلوقتي إحنا قدام طريق سد، والقضية دي لو مخلصتش في أسرع وقت، أنا هضطر أسحب الملف منك وأسلمه لجهة ثانية، أنت فاهم ده معناه إيه؟

ضغط تيمور على جبهته بيده، وقال بصوت مكتوم:

- فاهم يا فندم، فاهم جدّا، بس اديني فرصة أخيرة.

صمت اللواء عصام لثوانٍ بدت كالدقائق، ثم قال قبل أن يُعلق الخط:

- قدّامك 48 ساعة يا تيمور، لو مفيش دليل مادّي على مكتب القاضي بعد الوقت ده، اعتبر نفسك برّه القضية، وبرّه الخدمة كمان.

وضع تيمور الهاتف بجانبه، ونظر إلى دُخان سيجارته وهو يتصاعد، 48 ساعة فقط لَفَك لغز عُمره سنوات.

قطعت نغم حبل أفكارِ المُشتعل وهي تفتح الباب، وتدخل الغرفة بخطوات سريعة، ملامحها لم تكن قَلقة كعادتها بالعكس، كان يظهر عليها التفكير:

- تيمور أنا عندي فكرة، وممكن تفرق معانا كثير في اللعب اللي بيحصل ده.

عدلتُ جلستي ونظرتُ إليها باهتمام، فأنا أعلم أنّ عقل نغم في الأزمات يَزِنُ ذهبًا:

- قولي يا نغم سامعك، إيه هي فكرتك؟

أخذتُ نَفْسًا عميقًا، وقالت وهي تقترب من مكتب القاضي الصغير في ركني الخاص:

- شريف حكالي على كل حاجة حصلت وبالتفصيل، وأنا رأيي إننا لازم نخط حد يراقب القصر ليل نهار، سُحور أو جوزها أو حتى تمارا نفسها، أكيد هيرجعوا هناك في أيّ وقت، محدش بيسيب قصر زي ده مهجور للأبد.

هزرتُ رأسي ببأسٍ طفيف، وقلْتُ محاولًا كبج حماسها:

- نغم، هم مش بالغباء ده، تمارا وسُحور عارفين كويس إن أول مكان عيني هتروح عليه هو القصر ده، وتأكّدي إنهم عاملين حسابهم إن المنطقة كلها متراقبة.

لم تتراجع نغم، بل زادت نبرة التحدي في صوتها:

- بس أكيد ميعرفوش إنك ممكن تحط حد ملوش علاقة بالشرطة،
أو بالشوش المعروفة يراقبهم، إحنا محتاجين عين متبانش يا
تيمور!

توقفت عن التدخين فجأة، وبدأت الفكرة تلمع في رأسي أنا الآخر،
تذكرت وجه الخادمة البارد وصمتها المستفز، فقلت وأنا أضيق
عيناى:

- معاك حق، أنا روحت النهاردة ولقيت الخادمة الإسبانية دي
هناك، وزيت ما تقولي كدة كانت بتحرس غيابهم، البنيت دي أكيد
عارفة مكانهم فين بالطبط، بس لو ضغطنا عليها شوية، أو عرفنا
هي بتروح لمين وبتقابل مين، الخيط كله هيبقى في إيدنا.

بعد وقتٍ طويل من التخطيط المُجهَد لتلك القضية الشائكة، دخلت
علينا جميلة، لم تكن جميلة التي نعرفها، كانت غارقة في هاتفها،
وكانها تعيش في كوكبٍ آخر، جلست بجوار نغم دون أن تنطق
بكلمة، رفعت نغم رأسها عن أوراق القضية المُبعثرة أمامها،
وقالت بهدوء:

- مساء الخير يا جميلة، مشغولة في إيه؟

ردت جميلة دون أن ترفع عينها عن الشاشة:

- قاعدة على الفون عادي، مفيش حاجة.

رفعتُ عيني عن هاتفِي أراقبها باستغراب، هذه ليست جميلتي
التي أعرف تفاصيل صمتها قبل كلامها، سألتها بنبرة حاولت أن
تكون هادئة:

- في إيه يا جميلتي؟ مالك؟

ردت بضيقٍ مكتوم:

- مفيش حاجة يا جماعة، في إيه!

تجاهلتُ الأمر مؤقتًا، فأنا أثق في جميلة ثقةً عمياء، وعُدتُ أهاتف
الشخص المُكلّف بمراقبة القصر، لكن بعد ربع ساعة لمحْتُ
ابتسامةً غريبةً ترسم على وجهها وهي تحدّق في شاشتها،
ابتسامة لا تليق بجديّة الموقف الذي نحن فيه.

- بتعملي إيه على التليفون يا جميلة؟

- في إيه يا تيمور! بكلم واحدة صاحبتِي.

- صاحبتك؟ طب ورّيني صاحبتك اللي بقالك ساعة بتكلمِها دي.

- لا، أنت مالك؟

كلمة (أنت مالك) كانت الشرارة التي أحرقت هدوئي، لم أتحمل،
فُمْتُ كالصاعقة، وفي لمح البصر كنتُ أمامها، سحبْتُ الهاتف من
يدها بقوةٍ كادت تخلع أصابعها، ووقع بصري على الاسم الذي
جعل الدماء تغلي في عروقي.. (هيثم).

- بتكلمي هيثم ليه يا جميلة!

رَدَّتْ بِتَحَدٍّ وَصَوْتٍ مُرْتَجَفٍ:

- أَخْوِيَا زِي مَا أَنْتَ أَخْوِيَا!

صَرَخَتْ فِيهَا وَالْجَنُونِ يَتَمَلَّكُنِي:

- دِهْ مَشْ أَخْوَكِ، دِهْ وَاحِدْ نَدْلْ وَخَسِيسْ، هُوَ الَّذِي شَالْ مَسْؤُولِيَّتَكَ
وَأَنْتِ طِفْلَةٌ؟ هُوَ الَّذِي رَبَّاكَ وَسَهَرَ عَلَيْكَ؟ هَا.. رَدِّي عَلَيَّا!

نَظَرَتْ إِلَيَّ بَعِينِينَ تَشْتَعْلَانِ بِالتَّمَرْدِ، وَقَالَتْ جُمْلَةً قَتَلَتْ كُلَّ شَيْءٍ:

- وَأَنْتِ عَمَلْتَ كَدَهُ؟

لَمْ أَشْعُرْ بِنَفْسِي إِلَّا وَيَدِي تَهْوِي عَلَى وَجْهِهَا بِصَفْعَةٍ دَوَّتْ فِي
أَرْجَاءِ الْمَكَانِ، صَدْمَةٌ شَلَّتْ حَرَكَتِي قَبْلَ حَرَكَتِهَا، أَنَا الَّذِي لَمْ يَمِدْ
يَدُهُ يَوْمًا عَلَى أَخْتِهِ، وَابْنَتِهِ، وَصَدِيقَتِهِ.

شَهَقَتْ نَغَمٌ بَرْعَبَ، وَرَفَعَتْ جَمِيلَةً وَجْهَهَا بِبَطْءٍ، الذَّهُولُ يَغْلَفُ
مَلَامِحَهَا، بَيْنَمَا سَالَ خَيْطُ رَفِيعٍ مِنَ الدَّمَاءِ مِنْ جَانِبِ شَفَتَيْهَا
الْجَرِيحَةِ.

نَظَرْتُ إِلَى يَدِي ثُمَّ إِلَيْهَا، وَقُلْتُ بِصَوْتٍ مَخْنُوقٍ بِالنَّدَمِ وَالْقَسْوَةِ فِي
أَنْ وَاحِدٍ:

- آه، أَنَا الَّذِي عَمَلْتُ كَدَهُ.

نَظَرْتُ إِلَيَّ جَمِيلَةً نَظْرَةً لَمْ وَلَنْ أَنْسَاهَا مَا حَبِيبَتْ، نَظْرَةً انْكَسَارٍ لَمْ
تَكُنْ تَتَوَقَّعُهَا مِنِّي أَبَدًا، ثُمَّ اسْتَدَارَتْ وَخَرَجَتْ تَجَرُّ خَبِيبَتَهَا خَلْفَهَا،
اقْتَرَبَتْ مِنِّي نَغَمٌ وَالْعَتَابُ يَمْلَأُ عَيْنَيْهَا، عَتَابٌ كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِنْ
أَلْفِ صَفْعَةٍ.

نغم بنبرة باردة ومختصرة:

- تيمور، أنا لازم أمشي دلوقتي عشان ماما بترن عليّا، هعدّي عليك بكرة أنت وشريف، بما إنه هيبات عندك عشان مأمورية الصبح، ويا ريت متخلّش الغيرة ولا دماغك تودّيك وتحبيك، حاول تهدأ.

خرجت نغم هي الأخرى دون أن تمنحني فرصة للرد، وتركنتني وحيداً مع صدى الصفعة الذي لا يزال يرُنُّ في أذني، كيف لي أن أمد يدي على جميلتي؟ كيف سمحتُ لغضبي أن يغتال تلك المكانة التي منحناها لها كأخت وابنة وصديقة؟ يا لي من أحمق!

تنهّدت بضيقٍ، وحاولتُ استعادة قناع البرود الذي أرتيه دائماً، فقلّلتُ لنفسِي بصوتٍ مسموعٍ كأنني أبحث عن مبرر:

- أستغفر الله العظيم، طب ما هي غلطانة برضو، إزاي تطوّل لسانها عليّا، وتساوي بيني وبين واحد نكرة زي ده؟ يلا، أنا هقوم أنام دلوقتي، وبكرة لما الأمور تهدأ هبقى أصلحها بكلمتين.

استيقظتُ في اليوم التالي على طرقاتٍ عنيفة تكاد تخلع الباب من مفصّلاته، نظرتُ إلى الساعة، كانت تُشير إلى الثالثة والنصف عصرًا! قفرتُ من سريري بهلعٍ وصوتٍ مُرتجف:

- محدش صحّاني ليه؟ وفين جميلة الكلب دي؟ ونغم وشريف فين؟

هرعتُ إلى الصلاة وأنا أَلُمُّ بقايا نومي، فتحتُ الباب لأجد أمامي سعيدة والدّة شريف، تقف بقوامها المهيب، وصوتها الغليظ الذي لا يعرف أنصاف الحلول:

- فين شريف يا تيمور؟ ها، قولي ببصيع فين من ورايا؟

أجبتها وأنا أحاول استيعاب الصدمة:

- يا خالتي، شريف واكل علقه موت ونايم جوّه، ادخلي طيب.

لم تنتظر إذني، بل زقّنتني بكفها وهي تفتح الشقة قائلة بحدّة:

- هو أنا محتاجة إذن منك عشان أدخل بيت أختي؟

تركتها تتفحص المكان، ودخلتُ غرفة جميلة بغضبٍ مكتوم، وجدتُها في سُبَاتٍ عميق، لا يقطعه سوى أنفاسها الهادئة، بدأتُ أوقظها بعنف:

- قومي يا كلبة، ده أنا هموتك.

فتحت عينيًا واحدة ونظرت إليّ باحتقار:

- في إيه يا بغل؟ في حد يصحي حد كده؟

- أنتِ عارفة الساعة كام؟ وفين نغم؟

- نغم جت وفضلنا نصحي فيك وأنت نايم نومة أهل الكهف.

- طب قومي بسرعة اكوي هدومي.

قامت من سريرها وهي تضرب الأرض بقدميها بغضب طفولي:

- هو أنت إمتى تتجوز وتريجني من طلباتك دي بقا!

اتّجهتُ لغرفة شريف، كان يغطُّ في نومٍ عميق وكأنّه في عالمٍ موازٍ، بدأتُ أهزّه بقوة:

- قوم يا أخويا، قوم!

تمتم شريف بنعاس وهو يحاول تغطية وجهه:

- في إيه يا تيمور؟ بتصحيني ليه دلوقتي؟

- قوم عشان أمك برّه ده أولاً، وثانيًا عشان تفوق وتروح القسم، لأن اللواء عصام حالف لك ١٠٠ يمين ليجازيك.

انتفض شريف مفزوعًا وكأنّ تيارًا كهربائيًا أصابه:

- أنت عايز مني إيه أنت وأمي واللواء؟ حرام عليكم!

أجبته وأنا أغادر الغرفة مُسرّعًا:

- شريف، اخلص وروح مع أمك غير هدمك وقابلني في القسم، مش هتعيش معانا العمر كله يعني.

في تمام الرابعة والرُّبع، كانت قدماي تطآن أرض القسم، اندفعتُ نحو مكتبي بخطواتٍ لاهثة، لأجد نغم وشريف غارقين في طقوسهما المعتادة مع طبق الكشري، لاحظت نغم وجودي، فاندفعت تتحدّث بحماسٍ قطع سكون توتري:

- طب يا جماعة، تيمور أنا هقول المفاجأة اللي قولت لك عليها في المستشفى.

أجبتها بذهنٍ شاردٍ وقلبٍ مُثقلٍ:

- مفاجأةٍ إيه؟ هو أنا دماغي فيها مكان عشان أفكر؟

- إني هتخطب الأسبوع الجاي، في إيه! وكمان في خبر حلو يا جماعة.

لم تصل بقيّة كلماتها إلى مسمعي، فقد تسمّرت عيناى على شريف، رأيتُ الملعقة تسقط من يده ببطء وكأنها تزن أطنائاً، وتوقّفت مضغاته في ذهولٍ مرير، في تلك اللحظة رأيتُ في عينيه مرار الحب الذي لا يُداوى، ذاك الانكسار الذي يغتال بريق الروح في صمت.

«لطالما اعتقدتُ أنّ الرصاص هو وحده ما يقتل، لكنني رأيتُ الموت الآن في عينيّ صديقي، كان الحب يقطرُ وجعاً من ملامحه، كأنّ خبراً واحداً كان كافياً ليهدم جبال الصبر التي بناها لسنوات، يا للحب حين يتحوّل إلى سكينٍ صدئة تنغرس في صدرٍ من لا يملك درعاً، ويا لقسوة الأقدار حين تجبرنا على الابتسام لخبرٍ هو في الحقيقة نعيٌّ لمشاعرنا».

قطعت نغم حبل أفكارى وهي تلوّح بيدها أمام وجهي:

- في إيه يا جماعة؟ مش عايزين تسمعوا المفاجأة الثانية اللي تخص القضية؟

أجبتها بصوتٍ مُرتعش، أحاول فيه استجماع بقايا ثباتي:
- قولي.

- إحنا مسكنا الخدمة، وادّتنا شوية معلومات خطيرة.

- معلومات إيه؟

- إنهم كلهم مسافرين لندن بهويّة مُزيّفة، والطيارة هتتحرك
الفجر.

تسمّرتُ في مكاني، كانت المعلومات تتساقط كالصواعق، الخدمة
لم تُعطنا مجرد خيط، بل أعطتنا رقبة الأفعى، السّفر بهويّات
مُزيّفة يعني أن الشبكة أكبر ممّا تخيلنا، وأنّ هناك يدًا خفيّة في
الجوازات تُسهّل لهم هذا العبور، لندن ليست مجرد وجهة، بل
هي الملاذ الذي يخطّطون لإدارة عمليّاتهم منه بعيدًا عن قبضتنا.

نظرتُ إلى شريف، كان لا يزال هائمًا في ملكوت جرحه، بينما
نغم تنتظر مني رد فعلٍ مهنيّ، وجدتُ نفسي مُمزقًا بين صديقٍ
يحتضر عشقًا، وقضيةٍ تكاد تفلت من بين أيدينا لولا هذا الخيط
الأخير.

- نغم روعي للواء عصام، قوليله محتاجين قوّة للفجر، وأنت يا
شريف عايزك.

خرجت نغم لتُلبّي ما أمرتها به، تاركةً خلفها مساحةً من الصمت
المشحون بالوجع، اتّجهتُ نحو شريف الجالس خلف مكتبه
كخُطام رجل، كنتُ أشعر بكل طعنةٍ يذوقها، فما فائدة العتاب أو
اللوم الآن؟ لا أحد يملك مفاتيح دقّات قلبه، ولا أحد يستأذن نبضه
قبل أن يهوي في بئر العشق من طرفٍ واحد.

نظرتُ في عينيه بعمق وقلْتُ:

- طلع كل اللي في قلبك يا شريف، متبلّعث الوجع.

نظر إليَّ بعينين كانتا تفيضان دوماً بالمرح والسعادة، سعادة لا تليق أبداً بتفاصيل حياته المأساوية، شريف الذي هجره والده وهو في الثالثة، واعتنى بأمّ تنهشها نوبات الهلع، وشهد مقتل أخته على يد زوجها، ورغم ذلك كان هو من يزرع الضحكة في حياتي اليائسة.

تذكرتُ كيف كان يحميني ونحن صغار، كنتُ حينها ضعيف الشخصية، أتعرض للضرب من صبيبة المدرسة، لمجرد أنني أمارس هوايتي المفضلة في كرة القدم، فكان يندفع كالمجنون ليُدافع عني، وننتهي دائماً بضربنا سوياً، لكننا كنّا سوياً.

تكلم شريف بصوتٍ مخنوق بالدموع:

- هو أنا ليه يا تيمور حياتي كده؟ أنا إنسان في حالي، شوفت الذل والفقر من صغري، وكنت بحاول أضحك حتى في عز ألمي، ليه محببتنيش؟ ليه محسّتش بيّا؟ وبكل بساطة جاية تقولي هتخطب! هي ليه قاسية كده؟ مفكرتش فيّا؟ مفكرتش هعيش من بعدها إزاي؟ هي غلطتي إني حبيبتها يا تيمور صح؟

لم أجد جواباً، كنتُ أتأمل جرحه النازف بعجز، هو حتى لم يعترف، لم يُلَمِّح، فكيف لها أن تُخَمِّن ما يدور في دهاليز قلبه؟

- وهي هتعرف إزاي يا شريف وأنت حتى مكنتش بتلَمِّح؟

- عشان كانت دايماً بتبني بينها وبين قلبي حاجز بكلمة أنتم إخواتي!

تَنهَّدْتُ بِحُرْقَةٍ وَأَجَبْتُهُ بِوَأَقْعِيَّتِي الْمَعْهُودَةِ:

- كلمة إخوات دي يا شريف لقب بنقله لما تكون الصداقة بين بنت وبنت، أو لما نكون بنضحك على نفسنا، لكن بين ولد وبنت، اللقب ده بيبقى مجرد ستارة، لأن لازم طرف فيهم في الآخر هيغلط ويحب الثاني.

- وأنا الطرف اللي غلط، صح؟

لم أستطع أن أجيبه، فقد اقتحمت نغم خلوتنا وقطعت حبل كلماتنا المبتورة، كانت تجمع أشياءها، وتلتقط الجاكيت من فوق المقعد، وهي تقول بنبرة عملية:

- يا جماعة، اللواء عصام قالي أمشي دلوقتي وأرجع قبل ميعاد المهمة بساعة.

تحدّثتُ أنا قبل شريف، فأنا أعلم أنه حين يبكي لا يستطيع الكلام، شريف لا يبكي بعينه، بل يبكي بقلبه، ينزف من الداخل، وهذا النوع من البكاء الصامت هو ما يُمرّقني أنا.

- ماشي يا نغم، سلام.

- سلام، ومتسوش الخطوبة.

غادرت نغم، تاركة خلفها قلب رجلٍ مُحطَّم لا يستطيع أحدٌ رتقه، يقولون أنّ وجع المرأة حين تُحب من طرف واحد يكون أقسى وأمرّ، لكنها على الأقل تملك رفاهية البكاء، تُفرغ وجعها عبر عينيها، أمّا في هذا المجتمع فلا أحد يتحدّث عن الرجل حين يُحب من طرف واحد، لا يملك حقّ البكاء، ولا يجروء على إخراج كبته، لأنّ الرجل لا يبكي في عُرفهم.

«لماذا خُلِقنا بصلابة زائفة بينما قلوبنا من زجاج؟ إذا كان الرجل قد خُلِق ليَتَحَمَّل دون أن يذرف دمعة، فلماذا خلق الله لنا غددًا دمعيةً تُماثل تلك التي تمتلكها النساء؟ هل هي زينةٌ في أعيننا؟ أم أنَّها شاهدٌ صامت على جراحٍ لا يراها أحد؟».

التفتُ نحو شريف الذي كان يُحدِّق في الفراغ، قُلْتُ له بصوتٍ منخفض:

- شريف، أنا عايزك تهدأ خالص، نخلِّص المهمة دي وأنا هفضي لك تمامًا.

- هتفرق يعني يا تيمور قبل المهمة ولا بعدها؟

أجبته محاولاً كسر حدّة الحزن بنبرة فيها لمحة من مودة قديمة:

- آه هتفرق، هخلص وأخذك عند جميلة أختي تغنيك، أنت عارف صوتها بيغسل الهموم إزاي.

ارتسمت على شفتيّ شريف ابتسامة خفيفة باهتة، لكنها كانت كافية لتزلزل كياني، فابتسامة الحزين أشدَّ إيلاماً من بكائه، لم أحتمل رؤيته بهذا الانكسار، فجذبته من يده بقوة واتَّجهنا نحو مكتب اللواء عصام، لننال إذنًا بالخروج لبرهة من الزمن.

كان اللواء عصام يجلس خلف مكتبه بعجرفته المعهودة، ذاك الرجل الذي لا يُجيد لغة الحوار إلّا مع النساء، ولا يمنح الامتيازات أو الإجازات إلّا لهنّ.

- أخبار حضرتك يا سيادة اللواء عصام؟

أجابني وهو ينفخ دخان الفيب (Vape) الذي يدخنه، كانت الرائحة تملأ المكان بنكهة الفراولة التي أعشقها، لكن ما يمنعني عن شرائها هو أنني لا أملك رفاهية تبديد أموالني على الليكود (Liquid) الأصلي، الذي قد يصل سعر الزجاجة الواحدة منه الآن إلى 800 جنيه أو أكثر، اللعنة! ما الذي يدفعني للتفكير في أسعار التدخين وسط هذا الجحيم؟

نظر إليّ ببرودٍ قاتل وقال:

- عايز إيه؟

- ممكن بس إذن نص ساعة، آخذ شريف ونتمشّي شوية؟

- لا.

شعرتُ بشرارات الغضب تتسلّل إلى رأسي، كيف يمكن لبشرٍ أن يتّسم بكل هذا البرود والاستعلاء؟ اندفعت الكلمات من فمي رغمًا عني، وبنبرةٍ حملت كل غيظي:

- إحنا لو كنّا نسوان يا فندم، حضرتك كنت وافقت فورًا ومسحت لنا الجزمة كمان!

تجمّدت ملامحه، ورفع عينيه ببطء وهو يسأل بنبرة تُنذِر بالخطر:

- بتقول حاجة يا تيمور؟

في لمح البصر، كنتُ قد جذبتُ شريف من يده واندفعتُ خارج الغرفة قبل أن يُدرك هول ما قُلّته، وهافتُ من خلف الباب بصوتٍ عالٍ:

- بقول حبيبي يا لواء، تسلملي يا رب.

ومع مرور ساعات النهار، انغمستُ أنا وشريف في العمل كغريقين يتشبَّثان بقشّة، هو يحاول الهروب من طعنات قلبه، وأنا أحاول نسيان تلك الغصّة التي خلّفها شجاري مع جميلة، كانت الأوراق تلتهم الوقت، والدقائق تمرُّ ثقيلة كأنها سنوات.

وفجأة، بدأت خيوط الفجر الأولى تتسلّل بوهنٍ من خلف النوافذ، لترسم خطوطاً باهتة على وجوهنا المُتعبة، مُعلنَةً عن اقتراب ساعة الصفر، أشرتُ إلى شريف الذي كان غارقاً في ملفات القضية، فَفَهم الإشارة دون كلام، قام بصمتٍ مهيب، وبدأ يجهز الأسلحة، كان صوت تلقيم المسدّسات هو الموسيقى الوحيدة في الغرفة، صوت يُخبرك أنّ اللعب انتهى، وأنا الآن في مواجهة الموت.

في تلك اللحظة دخلت نغم، كانت قد استعادت حزمها المهني، وارتدت سترتها الواقية برصانة، وعيناها تلمعان بذكاءٍ حاد.

نغم بهمسٍ حاسم:

- القوة جاهزة برّه يا تيمور، اللواء عصام اّذاهم الأمر بالتحرك، والطيارة في مطار القاهرة بدأت تسخّن محرّكاتها.

نظرتُ إلى شريف، كان يُمسك بسلاحه بإحكام وكأنه يُفرغ فيه كل غضبه المكبوت، وضعتُ يدي على كتفه وقُلْتُ بصوتٍ منخفض لا يسمعه سيوانا:

- رَكَزْ يا شريف، الوجد خَلِيه جَوّاك دلوقتِي، إحنا محتاجينك صاحي لأبعد حد.

هزُّ رأسه موافقًا، وخرجنا الثلاثة خلف بعضنا البعض، نغم في المقدمة بخطواتها الواثقة، وشريف بجرحه النازف الذي أخفاه خلف قناع الجندية، وأنا في المؤخرة، أراقبُ ظهورهم وأدعو الله أن نعود جميعًا، وألا تكون هذه المهمة هي الخاتمة لكل شيء.

انطلقت سيارات الشرطة تَنَشِقُ سكون الفجر، وكان في قلبي قلقٌ من المجهول لم يعهده كياني من قبل، أنا في هذه المهنة منذ خمس سنوات، واجهتُ فيها عُتاةَ الإجرام، لكنني لم أشعر بهذا الارتياح في أيِّ قضيةٍ سبقت، فالمجرم هذه المرّة امرأة، ويا ويله مَنْ كان خِصمه امرأة تملك الذكاء والمكر معًا.

نظرتُ إلى شريف الجالس بجانبِي، كان مُنهمكًا في تجهيز سلاحه وتعميره بالليّة تَخْلُو من الروح، سألتُه محاولًا كسر حاجز الصمت الثقيل:

- شريف، فاضل لنا قد إيه؟

أجابني ببرودٍ يُثير حنقي:

- حوالي خمس دقائق ونوصل.

- طب مالك بترد عليّا كلمة بكلمة ليه؟ هو الحب بيعمل كده؟

- بيعمل أكثر من كده، بس يلا خَلِينا نركّز في الشغل ونشوف موضوع الحب ده بعدين، لأن كده كده نغم بتاعتِي.

تجمّدت الدماء في عروقي، ونظرتُ إليه بذهول:

- بتاعتك إزاي يعني!

أجاب بنبرة غريبة، نبرة رجلٍ قرّر التمرد على كل شيء:

- يعني هتكون ليّا غصب عنها يا تيمور، أنا مفيش حاجة بتضيع مني.

لولا أنني كنتُ أقود السيارة في تلك اللحظة، لكانت يدي قد هوت على وجهه بصفعةٍ تُفقيه من جنونه، كبحتُ جماح غضبي وضغطتُ على المكابح بعنفٍ هزّ أركان السيارة، والبوكس من خلفنا كاد يصطدم بنا، قُلْتُ له بصوتٍ يرتجف من الغل:

- شريف، متقولش كده تاني، نغم مش سلعة عشان تقول بتاعتي!

ارتسمت ابتسامة ساخرة وباردة على ملامحه وهو يُشير لي بيده أن أتوقّف، فقد وصلنا إلى تخوم المطار، نزل شريف بهدوء مُريب، ونزلتُ خلفه وأنا أشعر ببركانٍ يغلي في صدري، وفي السيارة المقابلة ترجّلت القوّات، ومعهم نغم التي كانت تتفقّد سلاحها بتركيز.

اقتربت منّا نغم وسألت بحماس الميدان:

- مستعدّين للهجوم؟

أجابها شريف بنبرة جافّة تقطر بروداً:

- اومال هنكون جايين المهمة دي وإحنا مش مستعدين؟

نظرت إليه نغم باستغرابٍ شديد، ما هذا الهراء الذي يتفوّه به؟ وكيف يتجرّأ هذا الأحمق على مخاطبتها بهذا الأسلوب الفجّ؟

تلاقت عيناى بعينيهما، ورأيتُ فيها تساؤلاً لم أملك له إجابة،
نظرتُ إلى شريف بغلٍ وغضب، وحاولتُ تلطيف الجو المسموم
قبل أن ينفجر الموقف في وجهنا:

- طيب يلاً بينا، مش هنقعد نتكلم كثير، المطار قدامنا والوقت
بيجري.

دخلنا المطار من البوابة الجانبية بخطواتٍ موزونة، وصوت
أحذيتنا العسكرية يتردد في الممرّات الرّخامية الباردة كأنه طبول
حرب، كانت الأجواء هادئة هدوءاً مُخيفاً، لا يقطعه سوى نداءات
الرحلات البعيدة، وصوت الحقائب التي تُجر على الأرض.

تورّعنا حسب الخطّة، نغم مع نصف القوة اتّجهت لتأمين
المخارج، بينما تحرّكتُ أنا وشريف نحو صالة كبار الزوّار حيث
أشارت المعلومات، كان شريف يتحرّك كآلة صمّاء، عيناه تلمعان
ببريقٍ غريب لم أعده فيه، وسلاحه مُصوّبٌ للأمام، وكأنّه ينتظر
أيّ حجة ليضغط على الزناد.

فجأة لمحنا الهدف، كانت تمارا ترتدي معطفاً طويلاً ونظارات
سوداء تخفي ملامحها، وبجانبيها رجلان بجُنُثٍ ضخمة يحملان
حقائب السفر، وسُحور وهذا الرجل الضخم بجانبهم.

تيمور بهمس حاد في اللاسلكي:

- نغم، الهدف في الممر (ب)، استعدّي للغلق من الجهة المقابلة،
شريف خليك ورايا، مفيش ضرب نار إلّا بأمرى.

لم يَرُد شريف، بل اندفع للأمام بخطوةٍ واسعة، ممّا جعل الحراس
يتنبّهون لوجودنا، في ألمح البصر استدار أحد الحراس وسحب

سلاحه، لكن شريف كان أسرع، صرخةً مدويةً خرجت من حنجرته وهو يُثبت سلاحه في وجه الحارس:

- ارمي السلاح يا ض بدل ما أفرغ الخزنة دي في دماغك.

ارتبك الجميع، وتوقفت تمارا مكانها، رفعت نظارتها ببطء لتكشف عن عيينين باردتين كالثلج، وابتسامة ساخرة ارتسمت على شفتيها المصبوغة بالأحمر القاني.

تمارا بنبرة هادئة ومُستفزة:

- تيمور بيه، كنت عارفة إنك مش هتضيع فرصة الوداع دي، بس ليه الصيَّاح ده؟ إحنا في مكان محترم.

تحدّثت بحدة وأنا أتقدّم نحوهم:

- المكان المحترم ده يا مدام هو آخر محطة ليك في الحرّية، ارموا الأسلحة وتعالوا بهدوء أحسنلكم.

في هذه اللحظة، ظهرت نغم من الجهة الأخرى ومعها القوة، ليُصبحوا مُحاصرين تمامًا، نظرت نغم إلى شريف بقلق من تهوّرهِ، ثم وجّهت كلامها لتمارا:

- سلّمي نفسك يا تمارا، اللعبة انتهت، والخدمة حكّت كل حاجة.

ضحكت تمارا ضحكةً مُجلجلة هزّت أركان الممر الرّخامي، ضحكة باردة لا تليق بامرأة تُحاصرها الفوّهات من كل جانب، تفرّست في وجهي بنظرة خبيثة، وقالت بنبرة تقطر سمًا:

- جميلة أختك لوحدها في البيت يا تيمور، صح؟

كانت كلماتها كخنجرٍ مسموم انغرس في صدري، فهذا لم يكن مجرد حديث، بل تهديدٌ صريح بحياة جميلتي، شعرتُ بجنون الغضب يغلي في عروقي، فاندفعتُ نحوها أهتف بصوتٍ رعدي: - وأنتِ قَدَّامي هنا يا تمارا، ورحمة أُمي لو جميلة اتلمست، لأقتلك أنتِ وسُحور والأريل اللي معاكم ده.

لم ترتدع، بل اقتربت مني بجرأةٍ شيطانية حتى تلامس صدرها بجسدي، وكأنها تتحدَّى هييتي وسلاحي، كانت تتحدَّث ببرودها المُعتاد، وكأنَّها في نزهةٍ وليست على بُعد خطوة واحدة من القضبان:

- هههه، أنتم أغبياء أوي يا جماعة.

تحرك شريف بحركة مُباغطة وهو يعبث بسلاحه، وسألها بنبرةٍ جافة:

- أغبياء ليه؟

- عشان زيّ ما أنتم معاكم أسلحة، أنا كمان معايا.

في حركة خاطفة، جذبها شريف نحوه بقوة لتصبح بين يديه هو بدلاً مِنِّي، واقترب بوجهه منها حتى تلامست أنفاسهما، وهمس أمام شفتيها بنبرةٍ مُحَمَّلة بالاحتقار والغِل:

- بس إحنا مش هنستخدم الأسلحة دي مع واحدة عاهرة زيّك، خسارة فيك الرصاص.

تحدّته تمارا بعينين يملؤهما التحدي:

- قد الكلمة دي يا شريف؟

ردّ عليها بصوتٍ خرج من سردابٍ مُظلم:

- مبقولش كلمة غير وأنا قدّها يا عاهرة.

في تلك اللحظة، لمحتُ طرف إصبع تمارا يتحرّك بإشارةٍ خاطفة إلى سُحور والرجل الضخم، لم تمر ثانية واحدة حتى كانت الأسلحة قد خرجت من ملابسهم، وعمر الرجل الضخم سلاحه بصرخة مكتومة، ووجهه نحوي أنا وشريف معاً، أغمضتُ عيني بقوة، استسلمتُ لفكرة النهاية، ولم أعد أريد سوى السواد، انتظرتُ البرودة التي تسبق الموت، لكنّ صوتاً آخر قطع السكون، سمعتُ ارتطاماً ثقيلاً بالأرض، وضحكاتٍ خبيثة انطلقت من حنجرة تمارا، فتحتُ عيني ببطء، كنتُ أخشى النظر للأسفل، وأبحثُ بعيني عن نغم في مكانها، لكنها لم تكن هناك.

لعبتُ نفسي لأنني نظرت، ولعبتُ اليوم الذي قُبلتُ فيه هذه القضية اللعينة، كانت نغم مُلقاة بين أحضان شريف، ملابسه تلطّخت بدمائها القانية، وأحشاؤها بدأت تظهر من فداحة الجرح، الرصاص المستخدم كان من نوع (دوم دوم)

(Dum-dum) المُحرّم دولياً، تلك الرصاصة اللعينة التي لا تكفي بالاختراق، بل تنفجر داخل الجسد لتفتك بالأنسجة، وتمزّق كل ما يقابلها من حياة.

«رأيتُ العالم ينهار في عينيّ شريف، نغم التي كانت منذ دقائق حلمه البعيد، أصبحت الآن جسداً ينزف بين يديه، كان الرصاص أقسى من أن يتحمّله جسدها الرقيق، وكأنّ القدر أراد أن يُعاقبنا جميعاً في شخصها، صمتُ المكان لم يعد يقطعه سوى أنفاسها

اللاهثة، ورائحة الموت التي بدأت تفوح من بين ثنايا ثيابها المُمزّقة».

نظر شريف إلى يديه المُلطّختين بدمها، ثم رفع رأسه نحو تمارا بنظرةٍ لم تكن بشريّةً أبداً، كانت نظرة وحشٍ جريحٍ فقد كل ما يربطه بالأرض.

في لحظةٍ انخلعت فيها القلوب من مكانها، استحال شريف إلى كتلة من الجمر والجنون، لم يعد الضابط الهادئ، بل صار قاضياً وجلاًداً في آنٍ واحد، وفي لمح البصر التقط سلاحه باليّةٍ مُربعة، ووجّهه نحو تمارا، سبع رصاصات متتالية، كل واحدة منها كانت صرخة وجع مكبوتة، لتسقط تلك اللعينة جثّة هادمة وسط دھول الجميع، وكأنّ رصاصاته كانت تمحو أثر كل كلمةٍ نطقها بحق جميلة.

لم يكتفِ بذلك، بل استدار نحو الرجل الضخم الذي مرّق جسد نغم برصاصاته الغادرة، وانهال عليه بعشر ضرباتٍ رصاصية صبّت جام غضبه في مقتل، لتستقر في قلبه ومواطن حياته، فيخّر صريعاً غارقاً في دمائه، فاقداً لكل جبروته أمام بركان شريف الذي لم يهدأ.

أوقفتُ شريف بالقوة، جذبتُ ذراعه والجنون يتطاير من عينيه، تزامناً مع اقتحام اللواء عصام للمكان مع القوّة الداعمة، كان المشهد مهيباً وقاسياً، رائحة البارود تختلط برائحة الدماء، وصراخ سُحور الهستير يملأ الممرّات، نظرتُ إليها وتيقّنتُ أنها فقدت عقلها تماماً، فقد أُصيبَت بالجنون من هول ما رأت، ولم تعد تقوى حتى على النطق باسم من رحلوا.

أمر اللواء بأخذ سُحور وتأمين المكان، بينما جثمتُ أنا وشريف على رُكبنا بجوار نغم، كانت الأرض تحتنا بحيرة من الدماء القانية.

تيمور بصوتٍ يرتجف لأول مرة:

- شريف، فوق يا شريف، نغم لسه بتتنفّس، اطلبوا الإسعاف فورًا!

كان شريف كالمُغَيَّب، يده المُلطَّخة بدماء نغم ترتجف وهي تُلامس وجهها الشاحب، نغم التي كانت تحلم بالخطوبة الأسبوع القادم، أصبحت الآن تُصارع الموت في ممرٍ بارد، نظر شريف نحو اللواء عصام بنظرةٍ خالية من أيِّ احترام أو خوف، ثم همس بصوتٍ تقطعت نياطه:

- راحت يا تيمور، راحت وهي فاكرة إنني مش بحبها، راحت وهي فاكرة إنَّها مجرد أخت.

تيمور بحدّة ليُخرجه من صدمته:

- مش وقت الكلام ده دلوقتي، قوم شيلها معايا، لازم نلحقها!

حملناها والأمل يتسرّب من بين أصابعنا كما يتسرّب دمها، وفي تلك اللحظة رنّ هاتفني في جيبي، كان المتصل جميلة، انقبض قلبي، هل كانت تمارا صديقة في تهديدها؟ هل تركت خلفها لغماً آخر سينفجر في بيتي؟

انطلقنا كالمجانين، صافرات الإنذار تَشُقُّ سكون الشوارع وكأنها تصرخ بوجعنا، شريف كان جالساً في الخلف، يضع رأس نغم على حجره، ويداه تضغطان على جرحها، بمحاولة يائسة لوقف شلال الدماء الذي لا ينقطع.

وصلنا لمدخل الطوارئ، وما أن توقفت السيارة حتى اندفع الممرّضون بنقّالة حديدية، سحبوا نغم من بين يديّ شريف الذي كان يرفض تركها، وكأنّه يخشى أنّ الموت سيختطفها فور أن تبتعد عن حضنه.

صرخت وأنا أنادي الدكتور:

- دكتور الحالة حرجة، رصاص متفجّر في الأحشاء، بسرعة!
اختفت نغم خلف الأبواب الزجاجية الكبيرة، ووقف شريف أمامها كالتائه، ملابسه مغطّاة بالدماء، ونظراته مُعلّقة بالباب الذي أُغلق في وجهه.

في تلك اللحظة، اهتزّ هاتفي في جيبي مرة أخرى، كانت جميلة، تنفّست الصعداء وحاولتُ استجماع ثباتي قبل أن أرد:

- أيوة يا جميلة، بترنّي ليه؟

جميلة بصوت يرتجف وقلق واضح:

- أنت فين يا تيمور؟ رنّيت عليك كثير ومردّتش، أنت فين دلوقتي؟ هتيجي إمتى؟

نظرتُ إلى شريف المُحطّم وإلى يدي المُلطّخة بالدّماء، ولم أُرِد
أن أُحمّلها همًّا فوق همّها، أو أخبرها بمدى قُرب الموت مِنّا
الليلة.

- أنا في المأمورية يا حبيبتي لسه مخلصناش، في شوية أوراق
بنخلّصها في القسم وهتأخّر شوية.

جميلة بشاك:

- تيمور متكديش عليّا، أنا حاسّة إن في حاجة، أنت وشريف ونغم
كويسين؟

- إحنا بخير يا جميلة، متقلقيش ونامي دلوقتي، ولما أرجع
هحكيلك كل حاجة، اقفلي الباب كويس ومتفتحيش لحد.

أغلقتُ الهاتف وأنا أشعر بغصّة في حلقي، التفتُ لشريف الذي
كان يجلس على الأرض، يسند رأسه إلى الحائط البارد، وعيناه
غارقتان في دماء نغم التي جفّت على يديه.

شريف بهمس مكسور:

- تيمور، لو نغم جرالها حاجة، أنا مش هسامح نفسي، أكيد
اتضايقت مني بسبب طريقه كلامي معاها.

جلست بجانبه وأنا أربّت على كتفه، محاولاً تهدئتها وجلد ذاته:

- نغم قوية يا شريف، وبعدين هي مكنتش هتحبك لو أنت ضعيف
كده، اجمد عشانها، لسه الحكاية مخلصتش.

بعد مرور ساعتين من التوتر القاتل، خرج الطبيب وهو ينزع قفازاته الملطّخة بالدماء، وجهه كان يحمل مزيجًا من الإرهاق والأسف، اندفعنا نحوه كالمجاذيب.

الطبيب بتهيدة ثقيلة:

- إحنا عملنا اللي علينا، النزيف كان داخلي وصعب جدًّا، والرصاصة دمّرت أجزاء كبيرة من الأمعاء، وللأسف اضطررنا نستأصل الرحم تمامًا عشان ننقذ حياتها.

ساد صمت مُميت، شريف تراجع للخلف خطوة، وكأنّ الأرض انشَقَّت تحت قدميه، نغم ستعيش لكنها لن تكون أبدًا تلك الفتاة التي كانت تحلم ببيت وأطفال، لقد سرقت الرصاصة أنوثتها قبل أن تسرق أحلامها.

مرّت ساعات الانتظار كأنها دهور، كان الممر المُظلم يبتلع أنفاسنا، وشريف لم يتحرّك من مكانه، ظلّ مُحملًا في الفراغ كتمثالٍ من طين، وفجأة خرجت الممرضة لتعلن أنّ نغم بدأت تستعيد وعيها.

دلفنا إلى الغرفة بخطواتٍ مُثقلة بالهزيمة، كانت نغم مُمدّدة على الفراش الأبيض، شاحبة كقطعة قماشٍ عتيقة، وأجهزة القياس تصدر أصواتًا رتيبة، تُشبه دقّات الساعة التي تُعلن نهاية زمنٍ وبداية آخر، فتحت عينيها ببطء، ونظرت إلينا بتيه قبل أن يستقر بصرها على شريف.

نغم بصوتٍ واهن يكاد يُسمع:

- شريف.. تيمور، إحنا قبضنا عليهم؟

أجابها شريف بصوتٍ مبحوح وهو يُقبّل يدها المُرتجفة:

- خلاص يا نغم، انتهى كل شيء، تمارا ورجّلتها غاروا في داهية، المهم أنت.

ساد صمتٌ ثقيل، كانت نغم تُحاول تحريك جسدها، لكن الألم كان ينهش أحشاءها، نظرت إلى وجوهنا، رأت الدموع المحبوسة في عينيّ شريف، والوجوم الذي يكسو وجهي، فأدركت بحسّها الأمني والأنتوي أن هناك ثمنًا باهظًا قد دُفع.

نغم بلهجةٍ أمرّة رغم ضعفها:

- تيمور قولي الحقيقة، أنا فيّا إيه؟ الرصاصة عملت إيه جوّه؟

نظرتُ إلى شريف، كان عاجزًا عن النطق، وكأنّه يخشى أن تقتلها الكلمات بعد أن عجز الرصاص عن فعل ذلك، تنحنّحتُ وفُلتُ بمرارة:

- نغم، الرصاصة كانت صعبة أوي، والنزيف مكنش بيقف، الدكاترة اضطروا يعملوا استئصال عشان حياتك.

لمعت عيناها بذكاءٍ حاد، وسألت بقلبٍ يرتجف:

- استئصال إيه يا تيمور؟

أجابها شريف وهو ينهار تمامًا، سقطت دموعه على يدها وهو يهمس بكسرة:

- الرَّحْم يا نغم، شالوا الرَّحْم.

في تلك اللحظة سكن كل شيء، لم تصرخ نغم، لم تبك، بل تجمّدت ملامحها تمامًا، وكأنّ روحها غادرت جسدها وبقي الحُطام، سحبت يدها من يد شريف ببطء مهين، ونظرت إلى سقف الغرفة ببرودٍ يقتل.

نغم بصوتٍ ميّت:

- يعني مفيش أطفال؟ يعني نغم الضابطة القوية بقت (نُص ست)؟ شريف بلهفة:

- أنتِ كل حاجة في حياتي يا نغم، أنا مش عايز أطفال، أنا عايزك أنتِ.

ضحكت نغم ضحكةً مخنوقة، كانت أقسى من صوت الرصاص، وقالت وهي تُشيع بوجهها عنه:

- بس أنا مش عايزاك يا شريف، أنت أخويا.

خرجت من الغرفة وأنا أشعر بالاختناق، تركتُ شريف يُواجه بركان ندمه وحده، وفي الخارج أخرجتُ هاتفي وتذكّرتُ جميلة، كان عليّ أن أعود للمنزل فورًا، ليس لأرتاح، بل لأتأكد أنّ بقايا عائلتي لا تزال بخير، وأنّ تمارا لم تترك لي جرحًا آخر في البيت.

أحياناً يُراودني خاطراً مريراً بأنَّ الموت قد يكون أحناً علينا من الحياة، حياة تسرقنا في دوامةٍ من المَلَل، الخناق، والحب الذي لا يُورث صاحبه سوى الخيبة، كنتُ أنا الوحيد الذي أدرك الحقيقة المُرَّة، نعم لم تُحب شريف يوماً بتلك الطريقة، والأُنكى من ذلك أنها لن تعيش لتمنحه حتى فرصة المحاولة، أخبرني الطبيب في همسٍ جنائزي أنَّ الكبد قد تفتَّت تماماً، وأنَّ عامّاً واحداً هو كل ما تملكه في رصيد البقاء.

ترجَّلتُ من سيارتي في حيِّ السيدة زينب العتيق، وقفْتُ أستنشق هواءه المُثقل برائحة البخور والتاريخ، صعدتُ إلى الدور التاسع على قدميَّ المُتعبتين، فالبواب ساجد لا يزال يستخسر فينا تشغيل المصعد، وكأنَّ الكهرباء أغلى من أنفاسنا.

بعد جُهدٍ جهيد، وقفْتُ أمام باب منزلي، وقبل أن أضع المفتاح في القفل، استقبلني صوت العندليب وهو يشدو برقّةٍ تدبج القلب، جميلة تعشق عبد الحليم حدَّ الجنون، ورثت هذا العشق عن أُمي، التي كانت تبدأ يومها وتنتهي بصوته.

كانت أغنية (زيّ الهوى) تملأ الرّدهة، تلك الأغنية التي تُعيد لي ملامح أُمي بوضوح مؤلم، تذكّرُ حين شغلتها في عيد ميلادي الثاني عشر، كانت تُدندن معها وهي تمسح على رأسي، وكأنها تُخبرني أنَّ الهوى غدارٌ والقدر أشدُّ غداراً.

فتحتُ الباب ببطء، وفي خلفية المكان كان صوت حليم يقول:

«زيّ الهوا يا حبيبي زيّ الهوا

وآه من الهوى يا حبيبي آه من الهوى

وخذتني من إيدي يا حبيبي ومشينا

تحت القمر غنينا وسهرنا وحكىنا

وفي عزّ الكلام سكت الكلام

وأتريني ماسك الهوا بإيديا

وأه من الهوى يا حبيبي، أه من الهوى يا حبيبي».

ما إن خطوتُ داخل المنزل حتى اندفعت جميلة نحوي بلهفةٍ لم أرَ مثلاً منذ زمن، واحتضنتني بقوةٍ أعادتني لسنواتٍ مضت، حضنٌ طويلٌ ودافئٌ يُشبه تماماً حضنَ أمي الراحلة، جميلةٌ تُشبهها في كل تفاصيلها، ملامحها العجريّة الفاتنة، وشعرها البُني الطويل، الذي كانت أمي تعتني به بخلطةٍ سحريّةٍ من زيت الزيتون والجرجير، تصنعها بنفسها وتفوح منها رائحة الأرض.

تأملتُ وجهها الصغير، عيناها السوداوات الواسعتان اللتان ورثتهما عن أبي، لكنهما بدتا أرقّ وأصفى من عينيهِ الغليظتين اللتين لم تعرفا الرحمة يوماً، ووجنتيها المحمرّتين طبيعياً، ووجهها البيضاوي الذي يشعُّ براءةً.

- وحشتني أوي يا تيمور، اتأخّرت ليه؟

طبعْتُ قُبلةً على جبينها، وقُلْتُ بحنان:

- وأنتِ يا قلب تيمور، مأهلّتنيش الظروف أرجع بدري.

- على العموم جيت في وقتك، أنا عملت لك الأكل اللي بتحبه.

رفعتُ حاجبي بابتسامةٍ مُتهكِّمة، محاولاً إخفاء جبال الهموم خلف
سُخريتي المُعتادة:

- أنا مستعجل جدًّا والله يا جميلة، ومش فاضي أروح أعمل غسيل
معدة النهاردة، بس يلا أهى كده كده خربانة، وهروح المستشفى.
لم تركِّز جميلة كثيرًا في تلمحي المِبطَّن عن المشفى، أو ربَّما
تعوَّدت على دُعاباتي الثقيلة، فجذبتني من يدي نحو المطبخ ببهجةٍ
طفوليَّة، وكأنَّها تسحبني من عالم الدم والرصاص، إلى عالمها
الصغير المليء برائحة الطبخ وصوت عبد الحليم.

كنتُ أتمنَّى لو أملكُ تلك الرفاهية المرة لزيارة قبر أمي، فقد
مضت ثلاثة أشهر ولم أجلس بجوارها لأحكي لها عن جروحي،
لكنني وللأسف مُجبِرٌّ على الذهاب إلى نغم وشريف، في مهنتي
الأحياء أحيانًا يكونون أحوج للزيارة من الموتى، لأن وجعهم لم
يهدأ بعد.

أعلمُ جيدًا أنَّ عائلة نغم هناك الآن، يملأون الممرَّات بالنَّحيب،
وأعلمُ أن خطيبها اللزج سيكون متصدرًا المشهد بدموعه
المُصطنعة، لكنني لا أستطيع ترك شريف وحيدًا في مواجهة تلك
العاصفة، فشريف الآن كالقارب المُحطَّم، وأيِّ موجة عاتية من
لوم الأهل أو نظراتهم قد تغرقه للأبد.

وصلتُ أخيرًا إلى مشفى المنيرة العام، ذاك المبنى الذي شهد من
الأوجاع ما يكفي لملء مجلِّدات، رأيتُ سيَّارات الشرطة تصطف

أمام البوابة الرئيسية، وأنوارها الزرقاء والحمراء تتقاطع في عتمة الليل، لتنعكس على وجوه المارّة القلقة، لكنني لم أبال كثيراً، فقلبي كان قد تشبّع بروية البوكس ورجال العمليات لدرجة البلادة.

ترجّلتُ من سيارتي واندفعتُ نحو الداخل، كانت رائحة المُعقّمات تمتزج برائحة اليأس في الممرّات، لمحّتُ العساكر يقفون على باب غرفة العمليات، فعرفتُ أن العاصفة قد بدأت هنا.

تيمور بصوتٍ حازم للعسكري:

- شريف بيه فين؟ واللواء عصام وصل؟

العسكري بأداءٍ عسكري مُضطرب:

- يا فندم شريف بيه في مكتب مدير المستشفى مع الجماعة بتوع التحقيقات، واللواء عصام جوّه مع أهل نغم هانم، الدنيا مقلوبة يا تيمور بيه.

تركّته وتحركتُ نحو المكتب، وقبل أن أدخل سمعتُ صوت خالد، خطيب نغم اللزج وهو يصرخ بهستيرية:

- يعني إيه استئصال؟ يعني إيه نغم متبقاش أم؟ أنا دافع دم قلبي في شبكة وشقة عشان في الآخر أتجوّز واحدة...

لم يُكمل جُمْلته، لأنّ قبضتي كانت قد استقرّت على ياقة قميصه المكوي بعناية، وجذبتُه نحو الحائط بكل ما أوتيت من غلٍّ تراكم في صدري طوال الليلة.

تيمور بصوت يُشبه الفحيح:

- لو سمعت صوتك ثاني، أو نطقت كلمة واحدة دي بصيغة النقص، أنا اللي هعملك استئصال لحاجة مش هتعرف تعوضها ثاني وأنت فاهم قصدي، نغم ضابطة بطة، وأنت مجرد عيل لزوج مش عارف قيمة الجوهرة اللي كانت في إيدك.

ارتجف خالد في يدي، بينما لمحت عيني شريف من بعيد، كان جالساً على مقعد خشبي، مطأطأ الرأس، يديه مُقيّدتين بالكبشات قانونياً لحين انتهاء محضر التحقيق، وكأنه لم يعد يهتم، فالسجن في نظره أهون بكثير من السجن الذي حبس فيه نفسه داخل شعوره بالذنب.

ترك خالد يرتجف خلفي، ودلفتُ إلى مكتب مدير المشفى بخطواتٍ واثقة، لكنني تسمّرتُ مكاني، لم يكن اللواء عصام وحده، بل كانت تجلس أمامه امرأة ثلاثينية، تفيض بجمالٍ صارمٍ يجعلك تشعر بالارتباك قبل أن تتنطق بكلمة.

كانت تجلس بظهر مفرد، مُرتديةً بذلةً رسمية زرقاء داكنة، تُحدّد قوامها الممشوق والرياضي بوقار، وجهها كان منحوتاً بدقة، بشرتها خمريّة صافية، وعيناها عسليّتان تُشبهان عيون الصقر في حدّتهما، أمّا شعرها الأسود الفاحم، فكان مجموعاً في كعكة احترافيّة خلف رأسها، لا تخرج منها خصلة واحدة متمردة، وكأنها تُسيطر على شعرها كما تُسيطر على أوراق القضية.

تحدّثت بنبرة حادّة:

- ممكن أفهم شريف بيه متكلّش ليه؟ إحنا في مأمورية رسميّة، مش في خناقة كباريه!

رفعت وكيلة النيابة عينيها ببطء، ونظرت إليّ ببرودٍ أصابني بالْقشعريرة، ثم قالت بصوتٍ رخيم ومُستقر:

- أنا الأستاذة فريدة سليم، وكيلة النيابة المسؤولة عن التحقيق في واقعة إطلاق النار، وسيادة الضابط شريف متكلّش تنفيذاً للمادة 136 من قانون الإجراءات الجنائية، بتهمة تجاوز حد الدفاع الشرعي، التي وصلت لحد القتل العمد مع سبق الإصرار.

- قتل عمد؟ حضرتك شوفتِ جثة نغم اللي جوّه؟ شوفتِ الرصاص اللي فرتك أحشاءها؟ شريف كان بيحمينا! فريدة وهي تُغلق محفظة أوراقها بحدّة:

- الدفاع الشرعي يا سيادة النقيب تيمور، يشترط التناسب بين الخطر والدفاع، شريف بيه أفرغ 17 رصاصة في جثث هامة، ده في القانون اسمه تمثيل وتشقّي مش دفاع، وبُناءً عليه هو قيد التّحفظ لحين صدور قرار النيابة بالحبس الاحتياطي 4 أيام على ذمّة التحقيق.

- والقانون ده ميعرفش إننا كنّا بنواجه عصابة دوليّة؟ إن تمارا دي كانت بتهدّد أمن بلد؟

فريدة وهي تقف بوقار، وتعَدّل من وضع بذلتها:

- القانون بيععرف الورق والطلقات اللي خرجت يا تيمور بيه، لو ثبت إن الضّرب كان في حالة فزع وعاطفة جيّاشة طبقاً للمادة 251 من قانون العقوبات، ممكن العقوبة تتخفّف، غير كده صاحبك في ورطة.

خرجت فريدة من المكتب، ومرّت من جانبي، فاح عطرها الذي يُشبه رائحة الورق الجديد والقهوة، تركتني واجماً أمام شريف الذي لم يرفع عينه عن الأرض.

خرجت فريدة وتركت خلفها صمّاً ثقيلاً، التفتُ إلى شريف، كان جالساً على ذلك المقعد الخشبي المُتهالك، يداه اللتان كانت تحصدان الرؤوس منذ قليل، ترتجفان الآن داخل الكلبشات اللعينة، منظره ببذلته المُلطّخة بالدماء ووجهه الشاحب كان يكسر قلبي.

انحنيتُ أمامه، وضعتُ يدي على كتفه أحاول استجادة القوة لجسده المُنهَار:

- شريف، فُوق يا صاحبي، فريدة دي مجرد وكيلة نيابة ماشية بالمسطرة، مش هسيبك تروح فيها عشان واحدة زيّ تمارا.

رفع شريف رأسه ببطء، كانت عيناه حمراوان من أثر الدموع المحبوسة والبارود، همس بصوتٍ مشروخ:

- مش مهم يا تيمور، مش مهم السجن ولا التحقيق، أنا قتلتها يا تيمور، نغم ضاعت بسببي، والرّجُم اللي شالوه ده كأنه انتزع من

قلبي أنا، أنا اللي سيبت تمارا تقرب، أنا اللي كنت بلعب بالسلاح
وهي بتلعب بأعصابنا.

تيمور بحدّة لُيُخرجه من حالة الجلد الذاتي:

- نغم لسه عايشة، والرّجَم والأطفال مش اللي بيعملوا السّت يا
شريف، نغم بطلة، وأنت بطل، واللي حصل ده كان حرب، أنا
هروح دلوقتي للواء عصام، وهكلم المحامي منير الديب، مش
هخلي قرار الحبس ده يتجدّد.

قطعت لحظتنا الدرامية صرخة عالية من الخارج، صوت خالد
اللزج وهو يتشاجر مع الممرّضين:

- أنا عايز أشوفها، من حقي أعرف هتمضي على إقرار التّنازل
عن الشبكة والمؤخر إمّتي، دي مبقّتش تصلح للجواز!

شعرتُ بدمي يفور، نظرتُ لشريف وجدته قد أغمض عينيه
بقهر، فانتصبتُ واقفًا كالمارد، خرجتُ من الغرفة بخطواتٍ
رزينة ومُخيفة، وقفتُ أمام خالد الذي كان يلوّح بيده في وجه
ممرّضة غلبانة.

تيمور بهدوءٍ يسبق العاصفة:

- خالد، أنت قولت إيه دلوقتي؟

ارتبك خالد، حاول استعادة شجاعته الواهية:

- بقول الحقيقة يا سيادة النقيب، أنا دافع شقى عمري، وفي الآخر
أخذ واحدة مبتخلفش؟ دي بيعة خسرانة وأنا عايز حقي...

لم أعطه فرصة ليُكمل، كانت يدي قد استقرّت حول عنقه، رفعته
عن الأرض حتى كادت عيناه تخرج من جحرهما، وهمستُ في
أذنه بنبرةٍ تقطر سماً:

- نغم مش بيعة يا روح أمك، نغم دي اللي كانت بتحميك وأنت
نايم في بيتكم تحت اللحاف، لو شوفت وشكّ هنا تاني، أو سمعت
إنك جيت ناحية أوضتها، هعمل فيك محضر تعدّي على موظف
عام أثناء تأدية عمله، وهلبّسك قضية تحرّش بمرضى المستشفى،
ورحمة أُمي لهخليك تاكل الحلاوة في الزنزانة مع سُحور اللي
اتجننت جوّه.

قذفته بعيداً فسقط يلهث ويبحث عن أنفاسه الهاربة، ثم جرى
كالْفأر المذعور نحو الباب، التفتُ لأجد فريدة واقفة عند زاوية
الممر، كانت تُراقب المشهد ببرودها المُعتاد، وابتسامة ساخرة لا
تكاد تبين على شفتيها.

فريدة وهي تقترب:

- أسلوبك في فض المنازعات عنيف أوي يا سيادة النقيب، ده
يتضاف لمُلفك ولا اعتبره نُبل فرسان؟

توقّفتُ مكاني، ونظرتُ إليها بنظرةٍ لم تخلُ من تقديرٍ لذكائها
المُستفز، وأجبتُ بصوتٍ مُنخفضٍ وهادئ:

- أنا مَبفُضّش منازعات يا أستاذة فريدة، أنا بنضّف الممر من
حشرات بتلوّث هوا المستشفى، ولو ده نُبل فرسان في نظرك،
فتقدري تضفيه للملف، أهى حاجة تكسر حدّة الـ 17 رصاصة
بتوع شريف.

لم تُحب، بل اكتفت بهزّة خفيفة من رأسها، وتابعت سيرها بكعب
حذاءها الذي كان يقرع الرخام بإيقاعٍ عسكري صارم، تنهّدتُ
بعُمق، وشعرتُ بثقل الجبال فوق كتفي، دلفْتُ إلى غرفة نغم مرة
أخرى، كانت قد بدأت تستعيد وعيها الكامل، لكن عينيها كانتا
غارقتين في صمتٍ مُخيف.

نغم بهمسٍ جاف:

- مشي يا تيمور؟

- قصدك خالد؟ غار في داهية يا نغم، والشبكة والمؤخر والهم ده
كله هيوصلوا له لحد البيت ومعاهم قلم هديّة مني.

لم تبتسم، بل نظرت إلى السقف، وقالت بمرارة:

- معاه حق، هو كان عايز بيت، وأنا بقيت مهمة منتهية، بس
شريف يا تيمور، شريف ملوش ذنب يشيل شيلتي.

تحدّثت بحدّة:

- شريف بيحبك يا نغم، شريف دلوقتي متكلبش في المكتب اللي
جنبنا عشان جابلك حقك من تمارا والكلب اللي معاه، شريف
ضحى بمستقبله عشانك، فبلاش أنتِ تضحى بيه بكلمتين يكسروا
قلبه.

ساد الصمت، ولم يقطعه سوى دخول الممرضة لتغيير المحلول،
خرجتُ للممر مرة أخرى، فوجدتُ اللواء عصام واقفاً، ملامحه
العجوزة بدت أكثر إنهاكاً، والسيجارة لا تُفارق يده رغم لافتات
(ممنوع التدخين) التي تملأ المكان.

اللواء عصام:

- تيمور، المحامي منير الديب في الطريق، بس القضية ثقيلة، فريدة سليم مش سهلة، دي ملقّبينها في النيابة بالحديدية، لو شريف منهار كده في التحقيق، هتلبّسه قضية تصفية جسدية وهيروح فيها.

- شريف مش هيروح في حنة يا فندم، أنا اللي هحقّق مع سُحور، هي خيطنا الوحيد لبر البراءة، لو اعترفت إن تمارا كانت لسه بتمثّل خطر، أو إنها كانت بتخطّط لتفجير المكان، موقف شريف هيتغير 180 درجة.

اللواء عصام بسخرية:

- سحور اتجنّنت يا تيمور، البنّت بتلطم وتصوّت وتقول (الدم.. الدم مالي المكان)، تفكر دي هتعرف تنطق بكلمة مفيدة؟

- الجنون أنواع يا فندم، وفي نوع من الجنون مش بيفوّق منه غير تيمور، أنا هروح لها المصحة اللي نقلوها ليها، وهخّليها تنطق بالحق، حتى لو هحقّق معاها بلغة المجانين.

اللواء عصام بشك:

- أنت عارف إنّ سحور في العباسية دلوقت تحت الحراسة، وممنوع حد يقرب منها غير بإذن النيابة، وأنت لسه شايف الست الحديدية واقفة هناك، تفكر هتوافق؟

نظرْتُ نحو فريدة، كانت تتحدّث في هاتفها بجديّة، وبذلّتها الزرقاء تلمع تحت أضواء المشفى الباهتة، اقتربتُ منها بخطواتٍ

محسوبة، وقفتُ أمامها حتى اضطرتَّ لإنهاء مكالمتها والنظر إليّ، تكلمتُ موجَّهًا كلامي إليها:

- أستاذة فريدة، قبل ما تقفلي محضرك وتعتبري شريف سَفَّاح بالصدفة، أنا محتاج 10 دقائق مع سُحور، البنت دي هي اللي كانت ماسكة خيوط تمارا كلها.

فريدة برفع حاجب:

- سيادة النقيب، سُحور في حالة ذهول تام، وتقرير المستشفى يقول إنَّها بتهلوس، التحقيق معاها دلوقتي باطل قانونًا.

- باطل لو اللي بيحقّق معاها وكيل نيابة بيمشي بالمسطرة، لكن لو اللي بيحقّق معاها ضابط ميداني، عارف مداخل النفوس اللي زيّ سُحور، فإحنا بنسمّيها استدلالات، خليني أحاول، ولو فشلت يبقى المحضر بتاعك زيّ ما هو.

تردّدت فريدة للحظة، نظرت إلى ساعة يدها الرقيقة، ثم قالت بصرامة:

- معاك 24 ساعة يا تيمور بيه، لو سُحور منطقتش بحاجة تُنْثَبِت إن شريف كان في حالة دفاع شرعي حقيقي، أو إن تمارا كانت لسه بتمثّل خطر لحظي، أنا هحوّل أوراق شريف للجنايات بتهمة القتل العمد.

استقررتُ خلف مقود سيارتي، وأوصدتُ الباب بقوة زلزلت أركان جسدي، وكأنّ الحزن القابع في صدري يبحث عن مخرجٍ

مادّي عنيف، أسندتُ رأسي إلى المقود للحظات، أغمضتُ عينيّ واستنشقتُ رائحة الجلد المختلطة بعبق البارود الذي التصق بأنفاسي، رافضاً أن يبرح مكانه.

أدرتُ المُحرّك وغادرتُ أسوار مشفى المُنيرة، بينما كانت الأفكار تتسارع في رأسي كطواحين لا تهدأ، بدت شوارع السيدة زينب هادئة على غير عادتها، كأنّ البيوت العتيقة هناك ترمقني بنظرات شفقة صامته، كنتُ أقود وعيناوي تراقب الطريق، لكن عقلي ظلّ أسيراً هناك، في ذاك الممر الغارق بالدماء، وفي ملامح شريف التي انطفأ فيها بريق الحياة، وفي نغم التي غدت كغصنٍ هشّ مكسور لا يجد مَنْ يُلملم شتاته.

- يا ترى يا تيمور، هل تطارد خيطاً من دخان؟

سألتُ نفسي هذا السؤال وأنا أحرف المقود جهة اليمين لأسلك طريق صلاح سالم، كانت سُحور بالنسبة لي لغزاً مُستعصياً، سيدة أربعينية غرر بها طريق تمارا فتاهت فيه، والآن هي طوق النجاة الوحيد لصديق عمري، إن لم تنطق سُحور بالحقيقة، سيبدّل شريف بذلته الميري بتلك البيضاء اللعينة... لا، لن تكون بذلة زفافه، بل سترة الحبس الاحتياطي التي قد تمتد لسنواتٍ طوال.

فتحتُ النافذة قليلاً، فلفح وجهي هواء بارد، استخرج من أعماقي تنهيدة مكتومة، تذكّرتُ جميلة وهي تحتضنني في المنزل، الخوف الذي كان يملأ عينيها، وكأنّها تشعر بأن شقيقها يحمل فوق كاهله جبلاً تفوق عظمة المقطّم الذي أمرُ بجانبه الآن.

بدأت ملامح مشفى العباسية تلوح في الأفق المُظلم، ذاك المبنى الكئيب الذي تحكي جدرانه قصص بشرٍ هربت عقولهم من قسوة

الواقع، ركنتُ سيارتي وترجّلتُ منها، أصلحتُ وضع مسدسي في جرابه القابع تحت ذراعي، وسحبْتُ نفساً عميقاً.

قُلْتُ في نفسي وأنا أجتاز البوابة الرئيسية:

- لو كان الجنون لغة، فأنا النهاردة هتقنها يا سُحور، عشان نغم وشريف اللي مستنيني خلف القضبان.

أخرجتُ هويّتي للعسكري الواقف، ورمقته بنظرةٍ جعلت فرائسه ترتعد، ثم قُلْتُ بصوتٍ واثقٍ رغم الوجع الذي يمزق نياط قلبي:

- افتح يا ابني، النقيب تيمور وصل، وعازب أشوف الحالة اللي لسه واصله من ساعة.

خطوْتُ في الرُدْهة الطويلة، كانت رائحة المُعقّمات واليأس تخنقني، لكنني كنتُ أعلم أنّ المعركة الحقيقية لم تبدأ بعد، ستبدأ هناك خلف باب غرفة سُحور.

وضعتُ يدي على مقبض الباب الحديدي الثقيل، وشعرتُ ببرودته تسري في عروقي كتحدّير أخير، دفعتُ الباب ببطء، فصرَّ مفصله بصوتٍ حادٍ مزّق سكّون الرُدْهة الكئيبة.

داخل الغرفة ذات الجدران البيضاء المتقشّرة، لم أجد سُحور التي عرفتها، تلك الفتاة العابثة التي كانت تتراقص خلف تمارا.

كانت تجلس في زاوية الغرفة، مُنكمشة على نفسها كجنينٍ يخشى الخروج إلى العالم، شعرها الذي كان مُصفاً بعناية بات أشعثاً يُغطي وجهها الشاحب، وعيناها.. يا الله على عينيها، كانت تدور في محجريهما بهلع، وكأنها تُشاهد فيلماً مُرعياً لا يتوقّف عرضه

أمامها. كانت تغرس أظافرها في ذراعيها، وتهمس بكلماتٍ غير مفهومة، وصوت أنفاسها المتهدّجة يملأ المكان.

سحبْتُ مقعدًا خشبيًّا وجلسْتُ أمامها مباشرةً، لم أتكلّم، بل تركتُ الصمت ينسج خيوطه بيننا لدقائق، حتى شعرتُ أنها بدأت تُدرك وجودي ودنوّ منها أكثر، حتى لم تعد تفصلنا سوى أنفاسٍ مُضطربة، وضعتُ عيني في عينيها مباشرةً، أُمّارس تلك الجيلة التي نبرع فيها نحن رجال المباحث، إرباك الخصم بالاقتراب المُفرط، واختراق مساحته الشخصية حتى يشعر بالُعريّ التام أمام نظرانا.

رفعت يديها لتعبث بخصلات شعرها، ذاك الشعر الذي كان يومًا حريّرًا كنتُ أفنّ بتموّجه، استحال الآن لكتلة مُجعّدة من الدرجة الرابعة، وكأنّ كل خصلة فيه إلّوت من هؤل ما رأت.

تحدّثت بهمس حاد:

- ازيك يا سُحور، أنا تيمور، فاكرا ني؟

نظرت إلّي بتيه، وكأنها تبحث عن الاسم في رُكام ذاكرتها المُحطمة، ثم زمّت شفّتها قائلة:

- تيمور! إيه الاسم ده؟ غريب أوي.

ابتسمتُ نصف ابتسامة، وحاولتُ استعادة نبرة الهدوء القديمة، لعلّها تفتح أبواب عقلها المُغلقة:

- لسانك طويل من يومك يا سُحور، مبتغي ريش.

لم تُبالِ بكلماتي، فقرّرتُ الدخول في صُلْب الفجيعة مباشرةً،
وضعتُ عيني في بؤبؤ عيناها المُتسع، وقُلْتُ بحزم:

- تمارا والمطار يا سُحور، تمارا كان معاها إيه وقتها؟

ارتجف جسدها فجأةً، وبدأت تهز رأسها بعنف كأنها تطرد فكرة
مُرعبة:

- لا، تمارا.. معرفش، متبصليش كده!

أدركتُ أنني بحاجة لمفتاح طفولي يكسر حدّة خوفها، فقُلْتُ بنبرةٍ
واعدة:

- قوليلي يا سُحور، وهجيبلك شيكولاتة كبيرة أوي من اللي
بتحببها.

توقّفت عن الهز، ووضعت يدها فوق رأسها بعلامة تفكير بلهاء،
وعادت ملامحها لوداعة الأطفال وهي تسأل:

- شيكولاتة؟ وهتجيب لتمارا كمان؟ هي بتزعل لما باكل لوحدي.

اعتصر قلبي من حالتها، لكنني واصلتُ اللعبة للنهاية:

- هجيب ليكم كلّكم، بس قوليلي اللي حصل.

سرحت ببصرها نحو الفراغ، وبدأت تُحاكي بأصابعها شكل
السلاح وهي تهمس:

- تمارا عملت طاخ طاخ في البنّت، والراجل ده (تقصد شريف)
عمل طاخ طاخ برضو عليهم.

تيمور محاولاً تثبيت المعلومة في عقلها:

- يعني هو عمل طاخ طاخ عليهم لما هي بدأت وعملت علينا،
صح؟

لوت رأسها بطفولية، وسألت ببراءة مريرة:

- يعني إيه صح؟

أجبتها برفق وأنا أربّت على طرف يدها المترعشة:

- يعني أيوة يا حبيبي، يعني حصل.

ردّدت ورائي كالتلميذة المُطبعة، واللّمة عادت لعينيها لثانية
واحدة:

- صح يعني أيوة، أيوة يا تيمور، يلا بقا هات لي الشيكولاتة.

- من عيني يا سُحور، هجيبلك أكبر علبة في الدنيا، وهخّلي
المرضة تجيبلك عصير كمان، بس توعديني تفضلي فاكرة
(صح يعني أيوة) دي لما السّت اللي لابسة أزرق (فريدة) تيجي
تسألك؟

هزّت رأسها بغنّف وهي تبتسم ابتسامةً غائبة، وبدأت تدندن بلحنٍ
غريب، بينما كنتُ أنا أبتعد بالكرسي ببطء، أنظر إليها وأتساءل:

- هل أنقذتُ شريف على حساب ما تبقى من عقل هذه المسكينة؟

نهضتُ واقفاً، وأخرجتُ هاتفي لأرسل رسالةً سريعةً للواء
عصام، يدي كانت ترتجف وأنا أكتب:

- سُحور نطقَت يا فندم، تمارا هي اللي بدأت، وشريف كان رد
فعل، البراءة في جيبنا.

خرجتُ من الغرفة، وفي الممر الطويل، وأنا أحمل التَّسجيل الذي
يُخرج صديق عمري من هذا السجن.

(إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ)، لم تكن مجرد آية أتلوها، بل كانت
حقيقةً تجسّدت أمامي في أبشع صورها، الآن أدركتُ
لماذا خصّهن الله بهذا الوصف، فحينما يكون خصمك
امرأةً قوية، متمرّدة، وليس لديها ما تخسره، يتحوّل
الصراع إلى دمارٍ شامل، لقد دمّرت تمارا حياتي، لم أعد
تيمور الهادئ الذي يكتفي بجميلة ونغم وشريف، حتى
خديجة التي لم أكن يومًا قريبًا منها، بتُّ أشعر بوجع
غيابها.

شريف انطفأت ضحكته، ونغمتي.. آه يا نغم، عامٌ واحد
هو كل ما يطلبه القدر لأفقدك للأبد إن لم أجد متبرعاً
بالكبد، بل ربما ثلاثة أشهر وتُغادرين عالمي، صدقتِ يا
تمارا حين قُلْتَ لي بفحيحك السّام: ستخسر الكثير يا

تيمور إن لم تتسحب، لقد أنهيت القضية، لكنني وأنا أطوي أوراقها، كنتُ أطوي معها فرحتي.

قطع حبل أفكارني الواهنة وصولي أمام مشفى المنيرة، ترجلتُ من سيارتي بجسدٍ خاوٍ، لا أبالي بمن حولي ولا بضجيج الشارع، دلفتُ إلى الداخل، وصعدتُ إلى الدور العاشر سيرًا على الأقدام، فمن اعتاد صعود الطابق التاسع يوميًا منذ مراهقته في الرابعة عشرة، لم تعد تُرهقه درجات السلم، بل يُرهقه ما ينتظره في نهايتها.

كنتُ أقبضُ على هاتفني بقوة، ذاك الصندوق الأسود الذي يحمل اعترافات سُحور المهلوسة، سلاحي الوحيد لتحرير شريف من غياهب السجن.

وقفتُ أمامها، وجسدي يرتجفُ من فرط الإرهاق والغضب المكبوت، ضغطتُ على زرّ التشغيل في هاتفني، وتركته يصدحُ بصوت سُحور المُرتعش وهي تصف السلاح، والموت الذي كان يتربّص بنا، نظرتُ إلى فريدة وعينيّ تلتئمُ بتحدٍ لم أعده في نفسي من قبل.

تحدّثتُ بحقدٍ مكثوم، وعينيّ تخترق برودها:

- أظن كدة مفيش ججة لحبس شريف يا أستاذة فريدة، شريف مكنش بيقتل عشان عايز كدا، شريف كان بيفرتك صاعق كان هينسفنا كلنا، ها؟ لسه شايفة إنها قضية قتل عمد؟

رأيتُ ملامح وجهها الحادة تتصلَّبُ للحظة، اقتربت من الهاتف، واستمعت بتركيزٍ شديد، ثم رفعت رأسها ونظرت إليَّ بهدوءٍ أصابني بالغثيان.

فريدة بنبرة جافة:

- التسجيل ده استدلال يا سيادة النقيب مش دليل فني، سُحور مريضة نفسية ومُودعة في مصحة، وشهادتها قانونًا مطعون فيها. شعرتُ بدمي يفور، فاقتربتُ منها خطوةً واحدة، وتحدّثتُ بفحيحٍ كالأفاعي:

- قانونًا؟ أنتِ لسه بتكلميني في القانون؟ صاحبي محبوس في مكتب ورايا والكلبشات واكله إيد، ونغم بتموت في العناية، وأنتِ جاية تقوليلي شهادة مطعون فيها؟ كان دفاع عن النفس.

التفتُ نحو اللواء عصام الذي كان يُراقب الموقف بصمتٍ ثقیل، وتحدّثتُ إليه بمرارةٍ طفحت على لساني:

- يا فندم أنا مَبَقَّتْش تيمور بتاع زمان، أنا خسرت كثير أوي في الليلة دي، نغم بتضيع مني، وشريف ضحكته اتسرقت، لو شريف مخرجش دلوقتي، أنا هقلب الدنيا ومش هيهمني رُتبة ولا قانون.

اللواء عصام وهو يضع يده على كتفي،:

- اهدأ يا تيمور، فريدة هتبعث قوّة تعالين المكان فورًا، ولو كلام سُحور صح، شريف هيخرج بضمان محل إقامته الليلة دي.

تركتهُم واقفين وتوجّهتُ نحو نافذة الممر الكبيرة، نظرتُ منها إلى شوارع السيدة زينب التي بدأت تضيق في عيني، شعرتُ بتمارا تضحك من قبرها، لقد نجحتِ فعلاً يا تمارا، أخرجتِ أسوأ ما

فيّ، وجعلتني أشك في كل شيء، حتى في عدالة السماء التي كنتُ أوّمن بها.

قبضتُ على حافّة النافذة حتى ابيضّت مفاصلي، وقُلْتُ في نفسي بيأسٍ مرير:

- لو نغم ضاعت مني يا تمارا، لو ملقتش المتبرع في خلال ٣ شهور دول، هحرق الدنيا باللي فيها، والبدلة الميري دي هتكون أول حاجة هولّع فيها.

رَن صمْتُ الممر في أذني كأنه صرير مُزعج، التفتُ بجسدي المُثقل بالهموم نحو المكتب الذي يقبع خلفه شريف، وتحدّثُ بلهجةٍ لا تقبل الجدل:

- أنا هدخل لشريف يا فندم، محدش يمنعني.

لم أنتظر فريدة أن تأذن لي، ولم يجروُ اللواء عصام على إيقافي، فتحتُ الباب فرأيتُ شريف جالسًا، رأسه بين يديه المُكلّبتين، وبُقع الدماء الجافّة على قميصه تروي حكاية ليلةٍ لم تنتهِ بعد، حين رأني لم يسأل عن براءة أو سجن، بل سأل عمّا يمزق روحه:

- نغم كويسة يا تيمور؟

أجبتُه بمرارةٍ حاولتُ إخفاءها خلف قناع القوّة:

- نغم كويسة يا صاحبي، وسُحور كمان نطقت، سُحور قالت إن تمارا هي اللي بدأت تضرب نار، وإنك كنت بتدافع عنا، التسجيل ده هيقرب الدنيا يا شريف، فريدة بتعافر بس خلاص، الحقيقة بقت أوضح من الشمس.

لم يهتز له جفن، بل تحدّث إليّ ببأسٍ حطّم ما تبقي من ثباتي:

- مش فارق معايا يا تيمور، تخرّجني، تحبسني، تموتني، نغم لو راحت مني الدنيا دي كلها ملهاش لازمة، أنا مش خايف من السجن، أنا خايف من بكرة اللي مفيش فيه صوت نغمتي.

قبضتُ على كتفه بقوة، وتحدّثتُ إليه بإصرارٍ يُغالبه البكاء:

- بكرة هيجي وهتكون هي فيه يا شريف، أنا مش هسكت، لو لزم الأمر هقطع حتة مني وأديها لها، ٣ شهور يا شريف، القدر اذانا مهلة ٣ شهور نلاقي مُتبرّع، وأنا مش هسبب نغم تروح، فاهم؟

في تلك اللحظة، دخل اللواء عصام وعلى وجهه ملامح ارتياحٍ طفيفة، مُمسكًا بملفٍ أزرق:

- مبروك يا شريف، تقرير المعمل الجنائي وصل، واتّجاه الرصاص في جثة تمارا أثبت إن أول طلقة خرجت من سلاحها هي، وإن ضربك كان رد فعل لحظي وتلقائي، النيابة قرّرت إخلاء سبيلك بضمان محل إقامتك، والقضية اتحوّلت للدفاع الشرعي.

لم يُهلّل شريف ولم يبتسم بل قام ببطء وانتظر حتى فكّ العسكري الكليشات من يده، نظر إليّ وقال بجمود:

- ودّيني ليها يا تيمور، عايز أشوفها.

خرجنا من غرفه التحقيق، اتّجهنا إلى الغرفة التي تقبع في آخر الممر، حيث ترقد نغم، وصلنا ووقفنا أمام غرفتها، لمستُ مقبض الباب، وقُلْتُ لنفسي بقلبٍ يرتجف:

- النهاردة خرّجت صاحبي من السجن، وبكرة لازم أخرج نغم من حُكم الإعدام ده، يا رب أنا معنديش غيرهم.

فتحتُ الباب، فاستقبلتنا رائحة المشفى الكريهة مرة أخرى، لكن وسط كل تلك الأجهزة، كانت نغم تفتح عينيها ببطء، وحين رأت شريف، ارتسمت على شفثيها الذابلتين أرقّ ابتسامة شوقتها في حياتي.

- شريف.. جيت؟

- جيت يا نغمتي، ومش هغيب تاني.

تنحيْتُ جانبًا، تاركًا لهما تلك اللحظة، وخرجتُ إلى الشُرْفة أراقب زحام السيدة زينب من بعيد، وضعتُ يدي في جيبي، وأخرجتُ سيجارة أشعلتها رغم أنني لا أُدخن كثيرًا، ونفثتُ دخانها في وجه القدر، مُستعدًا للمعركة الأخيرة، معركة المُتبرّع التي سأخوضها بكل ما أوتيت من قوة.

للانضمام إلى قناة الواتساب، الكاتبة:

